كلاسيكيات

فلسفة

برنارد ماندفيل

ثلاث دراسات حول
الأخلاق والفضيلة

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
www.sefsafa.com

برنارد ماندڤيل

ثلاث دراسات
حول الأخلاق والفضيلة

عبدالرحيم يوسف/ شاعر ومترجم سكندري، تخرج من جامعة الإسكندرية 1997. نشر قصائد وترجمات في جريدة أخبار الأدب المصرية، شارك كمحرر مساعد للترجمة في مجلة مينا، كما شارك بالترجمة في كتاب «نحو طبوغرافيات جديدة: الإسكندرية مدينة الطبقات» الصادر في 2013 بالسويد. ترجم عددا من التقارير لمنظمة اليونسكو وغيرها. نشر أربعة دواوين بالعامية المصرية منها "قُطَّه وقدّيسه وجنيَّه" عن دار صفصافة عام 2010.

ثلاث دراسات حول الأخلاق والفضيلة

طبعة 2019

رقم الإيـــداع: 2014-17215

الترقيم الدولي: 978-977-5154-30-9

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي

This book contains Three Studies on Virtue selected from (The Fable of the Bees, Vol.1 by Bernard Mandeville), an Enquiry Into the Origin of Moral Virtue, an Essay on charity, and charity-schools, a search Into the Nature of Society).

The publisher gratefully acknowledge the support of the Dutch Foundation for Literature

تمت ترجمة هذا العمل بدعم من المؤسسة الهولندية للآداب

Nederlands letterenfonds
dutch foundation
for literature



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

ثلاث دراسات
حول الأخلاق والفضيلة



برنارد ماندڤيل

ترجمة : عبد الرحيم يوسف



بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

ماندڤيل ، برنارد ،١٦٧٠-١٧٣٣

ثلاث دراسات حول الأخلاق والفضيلة / برنارد ماندڤيل،
ترجمة: عبد الرحيم يوسف

الجيزة، دار صفصافة للثقافة والنشر، ٢٠١٨

١٥٢ ص، ٢٠ سم

تدمك ٩-٣٠ - ٥١٥٤ - ٩٧٧ -٩٧٨

١- القصص الفرنسية

أ- يوسف ، عبد الرحيم (مترجم)

ب- العنوان

٧٠

رقم الإيداع: ٢٠١٤/١٧٢١٥

المحتويـات

مقدمة المترجم

برنارد ماندفيل أو برنارد دي ماندفيل هو فيلسوف وعالم اقتصاد سياسي وكاتب ساخر هولندي. وُلد في روتردام (وفي رواية أخرى دوردريخت) في الخامس عشر من نوفمبر عام 1670، وعاش أغلب حياته في انجلترا وكتب ونشر معظم أعماله بالإنجليزية. ورغم أن اسم (ماندفيل) يوحي بأصول فرنسية إلا أن أسلافه عاشوا في هولندا منذ القرن السادس عشر على الأقل.

كان والده طبيبا بارزا في روتردام بهولندا. وسار برنارد على درب أبيه فحصل على درجته العلمية في الطب عام 1691 بعد أن قدم خلال دراسته عددا من الأطروحات المثيرة للجدل حملت إحداها عنوان (الأفعال اللاعقلانية) والتي دافع فيها عن النظرية الديكارتية للسلوك التلقائي بين الحيوانات. ثم انتقل إلى انجلترا لتعلم اللغة؛ وهو ما نجح فيه بشكل فائق حتى أن الكثيرين من الإنجليز لم يصدقوا أبدا أنه أجنبي. وفي عام 1693 تم نفي والده من روتردام بعد أن ثبت اشتراكه في أحداث تمرد اندلعت في الخامس من أكتوبر عام 1690 ربما يكون برنارد نفسه قد شارك فيها.

ورغم أنه كان طبيبا محترما إلا أنه لم يكسب الكثير من عمله كطبيب، وعاش حياة متقشفة على معاش منحه إياه بعض التجار الهولنديون وما كان يحصل عليه من مُقطِّري الخمور نظير دفاعه عن فائدة المشروبات الروحية. وقد أكسبته قدراته الجدالية صداقة توماس باركر (لورد ماكليسفيلد ورئيس المحكمة العليا في الفترة من 1710 إلى 1718) والذي عرَّفه بدوره على الكاتب والسياسي جوزيف آديسون الذي أسس مع ريتشارد ستيل مجلة (ذي سبيكتاتور).

أشهر أعماله هو كتابه (خرافة النحل) الذي كانت بدايته قصيدة شعرية حلمنتيشية من مائتي مقطع بعنوان (الخلية المتذمرة أو الأشرار ينقلبون شرفاء) نشرها عام 1705 في كراسة من عشر صفحات بيعت بستة بنسات، وتُصوِّر جماعة من النحل تزدهر أمورها وتتطور حتى تغدو كلها فجأة شريفة وفاضلة، لكن مع انعدام رغبة أفرادها في المكسب الشخصي ينهار اقتصاد الخلية ويلجأ الباقي من النحل إلى جذع شجرة مجوفة ليعيشوا حياة بسيطة، في إشارة ضمنية إلى أنه بدون الرذائل الخاصة لن توجد منافع عامة. ثم أعاد نشرها عام 1714 كجزء تكميلي لكتابه (خرافة النحل أو الرذائل الخاصة والمنافع العامة) الذي اشتمل على تعليق نثري بعنوان "الملاحظات" ومقال "بحث في أصل الفضيلة الأخلاقية". وفي طبعة لاحقة ظهرت عام 1727 تضمن الكتاب "مقال عن الخيرية والمدارس الخيرية" و"بحث في طبيعة المجتمع". أثار الكتاب اعتراضات قوية حتى أنه خضع لدعوى قضائية عام 1729 بتهمة النزعة غير الأخلاقية. واعتبرته هيئة المحلفين الكبرى في (ميدلسكس) كتابا مزعجا، وهاجمه العديد من الكُتَّاب في الصحف

ثم في فصول من كتبهم. ومع ذلك ظل الكتاب يُطبَع وظهرت الطبعة التاسعة منه عام 1755 وطُبع بعدها كثيرا. وقد وصفه المؤرخ الأمريكي ويل ديورانت في مجلد عصر فولتير بموسوعة قصة الحضارة بأنه أقذع ما كُتب من تحليلات للطبيعة البشرية.

أثارت فلسفة ماندفيل الكثير من الاستياء في زمنه، وكثيرا ما وُصمت بأنها زائفة ومتشائمة ومخزية. وكانت فرضيته الأساسية هي أن أفعال البشر لا يمكن تقسيمها إلى أسمى وأدنى، وأن حياة الإنسان الأسمى هي مجرد خيال خلقه الفلاسفة والحُكَّام لتبسيط مفهوم الحكومة والعلاقات في المجتمع. وأن الفضيلة (التي يُعرِّفها ماندفيل بأنها كل أداء يسعى به الإنسان – بالمخالفة لبواعث الطبيعة – إلى فائدة الآخرين، أو إلى إخضاع عواطفه الشخصية من منطلق طموح عقلاني لأن يكون صالحا) هي في الحقيقة معيقة لتقدم الدولة التجاري والفكري؛ لأن الرذائل – مثل أفعال البشر التي تراعي صالحهم الشخصي فقط – هي التي تدفع المجتمع نحو التقدم عبر الابتكار وتدوير رأس المال في البحث عن الرفاهية والحياة الفخمة. وهكذا تكون الرذائل الشخصية سببا يؤدي إلى المنافع العامة. وتبدو وجهة نظره أكثر حدة عند مقارنتها بآراء آدم سميث (1723 – 1790). فكلاهما يؤمن بأن أفعال الأفراد الجماعية تجلب المنفعة العامة، لكن ما يفصل بين فلسفة الاثنين هو العامل المحفز لتلك المنفعة. فبينما كان سميث يعتقد أن وراء هذا التعاون غير المرئي اهتمام شخصي ذو طبيعة خيِّرة، رأى ماندفيل أن ما يدفع نحو ذاك التعاون هو الطمع الشرير وذلك إذا تم توجيهه بشكل سليم. هذا الاشتراط الخاص بالتوجيه السليم هو فرق آخر بين طرح ماندفيل

وموقف سميث المنادي بحرية السوق والمتمثل في مقولته «دعه يعمل دعه يمر». فماندفيل بشكل أساسي يدعو السياسيين لضمان أن تؤدي العواطف والميول البشرية إلى المنفعة العامة. كان اعتقاده الذي ذكره في خرافة النحل هو أنه «من الممكن عبر الإدارة الحاذقة لسياسي ماهر أن تتحول الرذائل الشخصية إلى منافع عامة». كما كان ماندفيل من أوائل من تكلموا عن تقسيم العمل، وقد استفاد سميث من بعض أمثلته في معرض حديثه هو أيضا عن تقسيم العمل.

كانت آراء ماندفيل صادمة للرأي العام، ولم تفلح كتاباته الأخيرة (أفكار حرة حول الدين 1720) و(بحث في أصل الشرف وفائدة المسيحية 1732) في أن تقلل من حدة هجوم منتقديه. وفي الوقت الذي تبدو فيه مفارقات ماندفيل الساخرة شيقة بشكل أساسي لانتقادها المثالية (اللطيفة) للورد شافتسبري، فإنها تبدو كذلك أكثر حيوية عند مقارنتها بالأنساق الفكرية الجادة والنرجسية لمفكرين مثل توماس هوبز (1588 – 1679). لا يمكن إنكار أن ماندفيل كانت له بصيرة فلسفية كبيرة، لكنه في الوقت نفسه كان انتقاديا وهداما إلى حد كبير، وكما قال هو نفسه أنه كان يكتب «من أجل إمتاع أهل المعرفة والتعليم». ويمكن القول عنه باختصار أنه أزاح العقبات من أمام مذهب النفعية القادم من بعده. وقد توفي ماندفيل في 21 يناير 1733 عن 62 عاما بعد إصابته بالأنفلونزا.

الجدير بالذكر أن الفيلسوف والاقتصادي النمساوي الشهير والحاصل على نوبل عام 1974 فريدريش فون هايك (1899 – 1992) أشاد كثيرا بأفكار ماندفيل عن المجتمع والسياسة في كتابه (القانون والتشريع

والحرية 1974).

يضم هذا الكتاب ترجمة لثلاثة من المقالات الأساسية لبرنارد ماندفيل جمعتها طبعات مختلفة من كتابه خرافة النحل وهي : (بحث في أصل الفضيلة الأخلاقية) و(بحث في طبيعة المجتمع) و(مقال عن الخيرية والمدارس الخيرية). وتمثل المقالات الثلاثة الأعمدة الأساسية لأطروحات ماندفيل الفكرية التي تتسع لتشمل الأخلاق والمجتمع والاقتصاد ولا تهمل التاريخ والدين والعلم. تقدم المقالات صورة للمجتمع الإنجليزي في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، فترة الحداثة المبكرة والتنوير والثورة العلمية في التاريخ الأوروبي والتي ألقت بظلالها الكثيفة على العالم بأسره من وقتها وحتى الآن. عصر تنقلت فيه القوة والثروة بين هولندا وأسبانيا والبرتغال لتؤول إلى انجلترا وفرنسا، فكان طبيعيا أن ينتقل برنارد ماندفيل إلى انجلترا وأن يكتب بلغتها وكأنه كان يبشر بهيمنة تلك اللغة القادمة. عصر تخللته حروب وصراعات كبيرة بين الدول الأوروبية نفسها ، وبينها وبين الامبراطورية العثمانية فيما سُمي بالحرب التركية العظمى والتي انتهت بهزيمة العثمانيين وبداية غروب امبراطوريتهم وتحولها إلى رجل أوروبا المريض، هذا الصراع الذي نجد انعكاسه في كتابات ماندفيل وتعريضه الدائم بالعثمانيين المسلمين ووصمه إياهم بالمتوحشين والبرابرة كجزء من تجليات الصراع وكمنحى عنصري تمييزي نجده لديه ليس فقط تجاه المسلمين لكن تجاه المرأة أيضا.

بلغته الإنجليزية الرصينة ذات الجمل الطويلة – التي تمتد في كثير

من الأحيان لتغدو فقرة كاملة – يقدم ماندفيل أفكاره مرصعة بالأمثلة والقصص والحوارات المُتَخيَّلة والإشارات التاريخية، ومليئة بالسخرية وأحيانا بالتعريض والهجاء لمعارضيه المتوقعين ومن يخالفهم الرأي من الكُتَّاب المعاصرين أو السابقين خاصة اللورد شافتسبري. ولا تخلو كتابته من اعتداد بالذات يصل إلى درجة الثناء على نفسه بنفسه !

لا يعرف الكثيرون برنارد ماندفيل، وربما تكون هذه هي أول ترجمة له إلى العربية. وآمل أن تكون نافذة للتعرف على جانب خفي وتأسيسي من الفكر العالمي الحديث الذي ترك أثره بلا شك على حياتنا وأفكارنا في هذا الجانب من العالم.

المصادر:

الويكيبديا :

http://en.wikipedia.org/wiki/Bernard_Mandeville

الموسوعة البريطانية :

http://en.wikisource.org/wiki/1911_Encyclop%C3%A6dia_Britannica/Mandeville,_Bernard_de

قصة الحضارة – عصر فولتير

http://www.civilizationstory.com/page.php?pageNumber=11790#bm

بحـث في
أصل الفضيلة الأخلاقية

كل الحيوانات الجاهلة مهمومة فقط بإسعاد أنفسها، وتتبع بشكل طبيعي اتجاه ميولها، دونما مراعاة للخير أو الشر اللذين سيحلان على الآخرين جرَّاء إحساسها بالسعادة. هذا هو السبب في أنه في دولة الطبيعة الوحشية تكون هذه المخلوقات أصلح للعيش معا بسلام في أعداد هائلة، حيث تكشف عن أقل ما يمكن من تفاهم، وتملك أقل ما يمكن إشباعه من شهوات، وبناء على ذلك ليس هناك نوع من الحيوانات – دون كبح الحكومة – أقل قدرة على الاتفاق معا في حشود لوقت طويل من الإنسان؛ لكن هذه هي خصاله سواء كانت صالحة أم طالحة، فلن أجزم بذلك، حيث لا يوجد مخلوق غيره يمكنه أن يصبح اجتماعيا بشكل أكبر، لكن لكونه حيوانا أنانيا وعنيدا وماكرا كذلك، مهما أمكن لقوة أعلى أن تقمعه، فإنه من المستحيل بالقوة وحدها أن يصبح سهل القياد وأن يتلقى ما يمكنه من تحسينات.

لذلك فإن الشيء الأساسي الذي سعى إليه المُشرِّعون والحكماء – الذين عملوا بجد من أجل تأسيس المجتمع – كان هو أن يجعلوا الناس الذين سيحكمونهم يؤمنون بأن من الأكثر فائدة لكل امرء أن يتغلب على شهواته عن أن ينغمس فيها، ومن الأفضل أن يراعي المصلحة العامة أكثر

مما يبدو كفائدة خاصة به. ولأن هذه كانت دائما مهمة صعبة للغاية، فإنه لم تُترك فطنة ولا بلاغة دون تجربتها من أجل إنجاز هذه المهمة، ووظَّف أخلاقيو وفلاسفة كل العصور أقصى مهاراتهم لإثبات حقيقة أن هذا الافتراض مفيد للغاية. لكن سواء آمن البشر بهذا أم لا، فليس من المحتمل أن يكون أي امرء قد تمكن من إقناعهم من رفض ميولهم الطبيعية، أو تفضيل صالح الآخرين على صالحهم، إذا لم يكن قد عرض عليهم في الوقت نفسه معادلا يمكن الاستمتاع به كمكافأة على الأذى الذي ألحقوه بأنفسهم جرَّاء فعلهم ذاك. هؤلاء الذين تعهدوا بتمدين البشرية لم يكونوا جاهلين بهذا، لكن لكونهم غير قادرين على منح مكافآت حقيقية كثيرة هكذا بالقدر الذي يرضي جميع الأشخاص على كل فعل فردي، فقد اضطروا إلى اختراع طريقة خيالية؛ كمعادل عام مقابل عناء إنكار الذات يمكن أن يؤدي الغرض في جميع المناسبات، ودون أن يكلف أحدا شيئا سواء هم أو الآخرين، لكنه يظل بمثابة أكثر تعويض مقبول بالنسبة للحاصلين عليه.

فحصوا بشكل كامل جميع نقاط القوة والضعف في طبيعتنا، وبملاحظة أن أيًا منها لم يكن فظا لدرجة ألا يفتنه المديح، أو حقيرا لدرجة أن يتحمل الاحتقار بصبر وأناة، فقد خلصوا عن حق إلى أن الإطراء لابد وأن يكون هو الحجة الأقوى التي يمكن استخدامها مع المخلوقات البشرية. بالاستفادة من هذه الأداة الفاتنة فقد مجَّدوا تفوق طبيعتنا على الحيوانات الأخرى، وعبر تقديم عجائب حكمتنا واتساع فهمنا بإشادة غير محدودة أضفوا ألف ثناء وثناء على عقلانية نفوسنا، والتي تمكنا بواسطتها من أداء أكثر المنجزات نُبلاً. بهذه الطريقة البارعة من التملق تمكنوا من التسلل إلى قلوب البشر، وبدأوا في إرشادهم حول مفهومي الشرف والعار؛ مقدمين

أحدهما باعتباره الأسوأ من بين كل الشرور، والآخر باعتباره الخير الأسمى الذي يمكن أن يطمح إليه البشر الفانون. بانتهائهم من ذلك؛ وضعوا أمامهم مسألة أنه من غير اللائق بالنسبة لجلال هذه المخلوقات السامية أن تكون مهمومة بإشباع تلك الشهوات التي تشترك فيها مع البهائم، وأن تكون في نفس الوقت غير منتبهة لتلك السمات الأعلى التي منحتها الأولوية على كل الكائنات المرئية. لكنهم اعترفوا بالفعل أن بواعث الطبيعة هذه مُلِّحة للغاية، وأن مقاومتها أمر شاق، ومن الصعب للغاية إخضاعها كلية. بيد أنهم استخدموا ذلك كبرهان لإظهار مقدار العظمة المصاحبة لقهرها من جانب، ومن جانب آخر مقدار الخزي المصاحب لعدم محاولة قهرها.

علاوة على ذلك ومن أجل خلق منافسة بين البشر، فقد قسموا الأنواع كلها إلى طبقتين تختلفان عن بعضهما بشكل كبير. طبقة منهما تكونت من البشر الحقراء ذوي العقول الوضيعة، هؤلاء الذين يطاردون دائما المتعة الآنية، وغير القادرين كلية على إنكار الذات، وبلا اعتبار لخير الآخرين، ليس لديهم أي هدف أسمى من مصلحتهم الخاصة، هؤلاء المستعبدون بالشهوانية، المستسلمون دون مقاومة لكل رغبة فظة، والذين لم يستفيدوا من ملكاتهم العقلية إلا لزيادة متعتهم الحسية. هؤلاء التعساء المنحطون المنبطحون – على حد قولهم – هم نفايات جنسهم، وليس لديهم إلا هيئة البشر، ولا يختلفون في شيء عن البهائم إلا في شكلهم الخارجي. لكن الطبقة الأخرى تألفت من مخلوقات شامخة ذات كبرياء، متحررة من الأنانية الدنيئة، قدَّرت أن تحسينات العقل هي خير متاع، وبفرضها لقيمة حقيقية على نفسها لم تجد متعة إلا في تزيين هذا الجزء الذي يتوقف عليه تميزها، محتقرة هكذا كل ما تشترك فيه

مع المخلوقات غير العاقلة، وقاومت بمساعدة العقل أكثر ميولها شدة، وبخوضها حربا مستمرة مع أنفسها لتعزيز سلام الآخرين لم تستهدف شيئا أقل من الصالح العام وقهر أهوائها الشخصية.

مَن قال أنه أقوى من ذلك الذي يهزم أقوى الأسوار؟ [1]

دعوا هؤلاء بالممثلين الحقيقيين لنوعهم السامي، متجاوزين الطبقة الأولى في القيمة بدرجات أكبر، أكبر من تلك الطبقة نفسها التي هي أسمى من بهائم الحقول.

كما هو الأمر بالنسبة لكل الحيوانات التي لا يمنع كونها ناقصة من اكتشافها للكبرياء؛ فإننا نجد أن أفضلها وكذلك أجملها وأكثرها قيمة هو الذي يملك بشكل عام أكبر نصيب من الكبرياء، الأمر نفسه بالنسبة للإنسان – وهو الأكثر كمالا بين الحيوانات – حيث نجد الكبرياء غير منفصل عن جوهره نفسه (ترى بأي قدر من الدهاء والبراعة قد يتعلم البعض أيا كان أن يخبئوه أو يخفوه !) حتى أنه بدون هذا الكبرياء يتطلب التركيب الذي يتألف منه الإنسان واحدا من مكوناته الأهم، والذي إذا تأملناه سنجد أنه من الصعب الشك فيه، لكن الدروس والاحتجاجات، والتي يتم تكييفها بمهارة بالغة لتلائم الرأي الجيد الذي يحمله الإنسان عن نفسه، مثل تلك التي ذكرتها لابد أنها إذا نُثرت ما بين حشد فإنها لن تحظى فقط بموافقة أغلبيته – بالنسبة للجزء التأملي – وإنما كذلك ستستميل العديدين، خاصة الأشرس والأكثر تصميما والأفضل من بينهم، كي يتحملوا آلاف العوائق ويمروا بالكثير من العقبات حتى يمكنهم أن

1- باللاتينية في الأصل

ينالوا سعادة أن يعدُّوا أنفسهم بشرا من الطبقة الثانية، وبالتالي ينسبون لأنفسهم كل امتيازاتها التي سمعوا بها.

من خلال ما قيل يتوجب علينا أن نتوقع في المقام الأول أن الأبطال الذين تجشموا مثل هذا العناء الاستثنائي كي يسيطروا على بعض من شهواتهم الطبيعية، وفضَّلوا صالح الآخرين على أي فائدة ملموسة خاصة بهم، لم يكونوا ليتراجعوا قيد أنملة عن المفاهيم الطيبة التي تلقوها فيما يتعلق بمكانة المخلوقات العاقلة، وإذا حدث أبدا أن كانت سلطة الحكومة إلى جانبهم، فستفرض بكل القوة التي يمكن تخيلها الاحترام الذي كان واجبا لهؤلاء المنتمين للطبقة الثانية، وكذلك ستؤكد تفوقهم على بقية جنسهم. وفي المقام الثاني فإن هؤلاء الذين أرادوا مخزونا كافيا إما من الكبرياء أو العزم لمساندتهم في إماتة شهوتهم تجاه ما كان هو الأعز لديهم – متتبعين الإملاءات الحسية للطبيعة – سيشعرون مع ذلك بالخزي من التسليم بأنهم هؤلاء التعساء الحقراء المنتمون للطبقة الأدنى، وأنهم اعتُبروا بشكل عام متزحزحين عن البهائم بمسافة ضئيلة، ومن ثمَّ سيقولون ذلك في مقام دفاعهم – كما فعل آخرون – وسيخفون أوجه نقصهم قدر ما يستطيعون، وسيرفعون عقيرتهم بمديح إنكار الذات والروح العامة بنفس القدر الذي سيؤديه أي شخص آخر؛ لأنه من المحتمل جدا أن بعضا منهم – مقتنعين بما رأوا من الأدلة الحقيقية للجَلَد وإخضاع الذات – سيعجبهم في الآخرين ما وجدوه ناقصا فيهم، وبعض آخر سيخيفهم عزم وشجاعة هؤلاء المنتمين للطبقة الثانية، وجميعهم سيظلون في رهبة من قوة حكامهم، لذلك من المنطقي التفكير في أنه لا أحد منهم (أيًا كان ما يعتقدونه في أنفسهم) سيجرؤ على أن ينكر علانية ما يعتقد كل امرء آخر أن الشك فيه عمل إجرامي.

تلك كانت (أو على الأقل من المحتمل أنها كانت) الطريقة التي تحطم بعدها الإنسان المتوحش، والتي منها يتضح أن المبادئ الأولية للأخلاقيات – التي افتتحها سياسيون مهرة كي يجعلوا البشر نافعين لبعضهم البعض وسهلي القياد كذلك – قد ابتُدعت أساسا حتى يتمكن الطموحون من جنى الفائدة الأكبر منها، وحُكم أعداد هائلة منهم بأكبر سهولة وأمن. بمجرد وضع هذا الأساس من السياسات يغدو من المستحيل أن يظل الإنسان غير متحضر لفترة طويلة؛ لأن حتى هؤلاء الذين يكافحون فقط لإشباع شهواتهم – مع تقاطعهم باستمرار مع آخرين من نفس النوع – لن يمكنهم إلا أن يلاحظوا أنهم كلما كبحوا أهواءهم أو تبعوها لكن بحذر أكبر كلما تجنبوا عالما من المشاكل، ونجوا غالبا من كثير من المصائب التي تلازم عامةً السعي المتلهف وراء المتعة.

أولاً هم يتلقون – مثلهم مثل الآخرين – فوائد تلك الإجراءات التي تتم لمصلحة المجتمع بأكمله، وبالتالي لن يمكنهم الامتناع عن تمني الخير لأبناء الطبقة الأعلى هؤلاء الذين نفَّذوها. ثانيًا كلما كانوا أكثر عزما على البحث عن منفعتهم الشخصية دون مراعاة للآخرين، كلما تزايد اقتناعهم باستمرار أنه لا أحد يقف في طريقهم بنفس القدر الذي يقوم به من هم على شاكلتهم.

سيكون من المفيد إذن لأسوأ من فيهم – أكثر من أي شخص آخر – أن يهتفوا داعمين الروح العامة، حيث يمكنهم جني ثمار عمل الآخرين وإنكارهم لذواتهم، وفي نفس الوقت الانغماس في شهواتهم بإزعاج أقل؛ فهم اتفقوا مع الآخرين على أن يُسمُّوا كل شيء يرتكبه الإنسان لإشباع شهواته دون مراعاة للجمهور العام (رذيلة)، وذلك إذا أمكن ملاحظة أقل احتمال في هذا الفعل يمكن أن يكون إما ضارا لأي شيء في المجتمع،

أو يجعل من المرء نفسه شخصا أقل نفعا للآخرين، وأن يمنحوا اسم (فضيلة) لكل أداء يسعى به الإنسان - بالمخالفة لبواعث الطبيعة - إلى فائدة الآخرين، أو إلى إخضاع عواطفه الشخصية من منطلق طموح عقلاني لأن يكون صالحا.

ثمة اعتراض سيثور بأنه لا يوجد أبدا مجتمع أصاب أي جانب من التحضر قبل أن تتفق الغالبية العظمى منه على شكل أو آخر من العبادة لقوة ذات حكم مطلق، وبالتالي فإن مفهومي الخير والشر، والتمييز ما بين الفضيلة والرذيلة لم يكونوا أبدا اختراعا من السياسيين، بل نتاج خالص للدين. قبل أن أرد على هذا الاعتراض لابد أن أكرر ما قلته بالفعل؛ أي أنني في هذا البحث في أصل الفضيلة الأخلاقية لا أتحدث عن اليهود ولا عن المسيحيين؛ وإنما عن الإنسان في حالته الطبيعية وجهله بالمعبود الحق، ومن ثمَّ أؤكد أن الخرافات الوثنية لكل الأمم الأخرى والمفاهيم البائسة التي لديهم عن (الكائن الأسمى) لم تكن قادرة على دفع الإنسان نحو الفضيلة، وليس لها نفع غير ترهيب وإلهاء حشد فظ وغافل. يتضح من التاريخ وفي كل المجتمعات الكبيرة كم كان الناس الذين تلقوا المفاهيم أغبياء وسخفاء أيا كانوا، بالنسبة للآلهة التي كانوا يعبدونها، لقد بذلت الطبيعة البشرية نفسها بكل فروعها، ولا توجد أي حكمة أرضية أو فضيلة أخلاقية إلا وتفوق فيها البشر في وقت أو آخر في كافة المَلَكيات والأمم التي تميزت بالثروات والقوة بأي شكل من الأشكال.

المصريون - الذين لم يقنعوا بتأليه كل الوحوش القبيحة التي كان بإمكانهم التفكير فيها - كانوا حمقى للغاية كي يعبدوا البصلات التي زرعوها بأيديهم، لكن في نفس الوقت كانت بلادهم أشهر حاضنة للفنون والعلوم في العالم، وكانوا هم أنفسهم أكثر براعة بشكل واضح في أعمق

أسرار الطبيعة من أي أمة كانت في زمانهم.

لا توجد تحت السماء دول أو ممالك قد قدمت نماذج من كل الأنواع للفضائل الأخلاقية أكثر أو أعظم مما قدمته الامبراطوريتان الإغريقية والرومانية، والأخيرة بشكل أخص؛ لكن كم كانت عواطفهم فيما يتعلق بالأمور المقدسة واهية ومنافية للعقل وسخيفة؟ لأنه حتى بدون التأمل في العدد المفرط من آلهتهم، إذا نظرنا فقط في القصص الفاضحة التي أنشأوها عنهم فإنه لن يمكن إنكار أن ديانتهم - البعيدة عن تعليم الإنسان التغلب على عواطفه والطريق إلى الفضيلة - تبدو وكأنها قد تم ابتداعها لتبرير شهواتهم، وتشجيع رذائلهم. لكن إذا كنا نريد أن نعرف ما الذي جعلهم يتفوقون في الجَلَد والشجاعة والشهامة فلابد أن نرمي بأبصارنا إلى عظمة انتصاراتهم، وروعة آثارهم وأقواسهم، نصبهم التذكارية وتماثيلهم ونقوشهم، تنوع تيجانهم الحربية، أشكال تكريمهم المخصصة للموتى، الإشادات العامة بالأحياء، والمكافآت الأخرى غير المادية التي كانوا يُنعمون بها على الرجال ذوي الاستحقاق، وسنجد أن ما حمل الكثيرين منهم على الوصول إلى أقصى درجة من إنكار الذات لم يكن شيئا غير سياستهم في استغلال الوسيلة الأكثر فعالية والتي يمكن بها تملق الإحساس بالفخر.

من الواضح إذن أنه لم يكن ثمة دين وثني أو خرافات وثنية أخرى هي التي وضعت الإنسان لأول مرة في تقاطع أمام شهواته والتغلب على أعز أهوائه؛ بل الإدارة الماهرة من قِبَل سياسيين واعين، وكلما اقتربنا أكثر في بحثنا داخل الطبيعة البشرية كلما زاد اقتناعنا بأن الفضائل الأخلاقية هي النتاج السياسي الذي ولَّده الإطراء في زواجه من الكبرياء.

لا يوجد إنسان أيا كانت كفاءته أو ذكاؤه لا يتأثر كلية بسحر الإطراء، إذا قُدِّم ببراعة وتناسب مع قدراته. سيبتلع الأطفال والحمقى المديح الشخصي، لكن هؤلاء الأكثر دهاءً لابد من التعامل معهم بحذر أكبر، وكلما كان الإطراء أكثر عمومية كلما قل الشك فيه من هؤلاء المستهدفين به. فكل ما تقوله في مديح مدينة بأكملها يتلقاه كل سكانها بسعادة، تكلم في مديح المعرفة بشكل عام وسيعد كل إنسان متعلم نفسه ممتنا لك بشكل خاص. يمكنك أن تمدح مطمئنا وظيفة إنسان أو البلد التي وُلد فيها؛ لأنك تعطيه فرصة إظهار البهجة التي يشعر بها لحسابه الخاص تحت غطاء التقدير الذي يتظاهر بامتلاكه نحو الآخرين.

من الشائع ما بين الدهاة من الرجال الذين يدركون السلطة التي يملكها الإطراء على الكبرياء، أنهم عندما يخشون أن ينخدعوا يسهبون في الحديث – رغم أن ذلك كثيرا ما يكون مخالفا لضمائرهم – حول الشرف والتعامل العادل وسلامة الأسرة أو البلد أوأحيانا مهنة الشخص الذي يشكون فيه، لأنهم يعرفون أن البشر غالبا سيغيرون قرارهم، ويتصرفون ضد هواهم، وأنهم من الممكن أن يحظوا بمتعة الاستمرار في أن يبدوا في وجهة نظر البعض ما هم مدركون أنهم ليسوا كذلك في الواقع. هكذا يرسم الأخلاقيون الفطنون البشر مثل الملائكة؛ على أمل أن كبرياء البعض على الأقل سيجعلهم يحذون حذو الأصول الجميلة التي مُثِّلوا بها.

عندما يؤكد السير "ريتشارد ستيل"[2] الفذّ بالأناقة المعتادة لأسلوبه السهل على مدائحه لنوعه السامي، ويستعرض تفوق الطبيعة البشرية

2- سير ريتشارد ستيل (1672 – 1729) كاتب وسياسي آيرلندي شارك في تأسيس مجلة ذا سبيكتاتور مع صديقه جوزيف أديسون

بكل الزخارف البلاغية، فمن المستحيل ألا يفتتن المرء بتحولات فكره السارَّة وأدب تعبيراته. لكن رغم أني كثيرا ما تأثرت بقوة فصاحته، وأني مستعد لابتلاع السفسطة البارعة بكل سرور، إلا أنني لم أستطع أبدا أن أكون جادا للغاية؛ لكن بتأمل مدائحه البارعة فكرت في الحيل التي تستخدمها النساء اللاتي يعلمن الأطفال أن يكونوا مهذبين. فعندما تبدأ فتاة خرقاء – قبل أن تتمكن سواء من الحديث أو الحركة – وبعد توسلات عديدة في القيام بالمحاولات الأولى الخشنة لأداء انحناءة الاحترام، تسقط المُربيَّة في نوبة من الإطراء : "ها هي انحناءة احترام رقيقة ! أوه يا آنستي الرائعة ! ها هي سيدة جميلة ! ماما ! الآنسة يمكنها القيام بانحناءة احترام أفضل من أختها (مولي) !" ويتكرر نفس الكلام مرارا من الخادمات، بينما تحتضن ماما الطفلة حتى تتفكك قطعا تقريبا، وحدها الآنسة (مولي) – التي تعرف كيف تقوم بانحناءة احترام جميلة للغاية نظرا لكونها أكبر عُمرًا بأربع سنوات – تتعجب من فساد حكمهم، وبامتلائها بالسخط تغدو متأهبة للبكاء من الظلم الذي لحق بها، حتى يهمسوا في أذنها بأن هذا فقط لإسعاد الطفلة، وأنها امرأة؛ عندئذ يتزايد فخرها نتيجة اطلاعها على السر، وابتهاجا بتفوق فهمها تكرر ما قيل مع إضافات كبيرة، وتتعامل بخيلاء مع ضعف أختها؛ التي تظن طوال هذا الوقت أنها الفقاعة الوحيدة بينهم. هذه الإطراءات المفرطة يمكن أن يدعوها أي شخص – لديه ما هو أعلى من مدارك طفل – بمداهنات زائدة، وإذا شئت فهي أكاذيب كريهة، لكن الخبرة تعلمنا أنه بمساعدة تلك الإطراءات الفادحة ستصل الآنسات الصغيرات إلى أداء انحناءات احترام جميلة، وسيسلكن مسلك النساء في وقت أقرب بكثير، وبمتاعب أقل مما يمكن أن يواجهنه بدونها. الأمر نفسه مع الأولاد؛ الذين سيسعون جاهدين

لإقناعهم بأن كل الرجال المهذبين الرائعين يفعلون كما يؤمرون، وأن الأولاد المتسولين وحدهم هم من يكونون وقحين ويوسخون ملابسهم، كلا بل بمجرد أن يبدأ الشقي المتوحش في البحث عن قبعته بقبضته غير المدربة، وقبل أن يتم العامين تخبره الأم - كي تجعله يخلعها - أنه رجل، وإذا كرر هذا التصرف عندما ترغب منه أن يفعله فسيكون فورا كابتن، أو عُمدة أو ملكا أو شيئا أعلى إذا أمكنها التفكير في ذلك، ويستمر هذا التحريض بقوة الإطراء حتى يسعى الولد الصغير لتقليد الرجل بقدر ما يستطيع، ويُجهد كل ملكاته كي يبدو على هيئة ما يتخيل عقله الضحل أنه يُعتقد أن يكون.

إن أحقر البؤساء شأنا يفرض على نفسه قيمة نفيسة، وأسمى أمنية للإنسان الطموح هي أن يملك العالم بأسره - إلى هذا الحد - وفق رأيه، لذلك فإن أشد عطش لا يرتوي للشهرة والذي طالما ألهم الأبطال لم يكن أبدا أكثر من طمع غير مكبوح للاستحواذ على تقدير وإعجاب الآخرين في العصور القادمة في المستقبل وكذلك في عصرهم، و (ما الذي يمكن أن يمثله الزهد أيا كانت تلك الحقيقة لرجال مثل الإسكندر أو يوليوس قيصر إذا أعادوا التفكير في الأمر) الجزء الأعظم المبتغى - الذي من أجله ضحَّت أكثر العقول رفعة براحتها وصحتها ومتعها الحسية وكل بوصة فيها عن طيب خاطر - لم يكن أبدا شيئا آخر غير النَفَس للإنسان؛ عملة المديح الأثيرية. مَن يمكنه أن يمسك نفسه عن الضحك عندما يفكر في كل الرجال العظام الذين تعاملوا بجدية شديدة للغاية مع موضوع هذا المجنون المقدوني، وروحه الرحيبة، وهذا القلب القوي الكبير الذي استقر العالم مستريحا في أحد أركانه - بحسب كلام لورنزو جراتيان - حتى أنه في المجمل كان به مساحة لستة عوالم أخرى؟ أقول مَن يمكنه

أن يمسك نفسه عن الضحك عندما يقارن بين الأشياء الطيبة التي قيلت عن الإسكندر وبين الغاية التي انتواها لنفسه من بين مآثره الهائلة، والتي يمكن إثباتها بلسانه شخصيا؛ عندما أرغمه ما تجشمه من عناء بالغ كي يعبر نهر الهيداسبس على أن يصرخ قائلا : "أيها الأثينيون، هل يمكن أن تصدقوا ما أعرض نفسي له من أخطار لكي تمدحوني !" ليحدد بذلك مكافأة المجد بأوفر أسلوب، وأكثر ما يمكن قوله عن ذلك هو أنه يتسبب في بهجة مفرطة يتمتع بها إنسان - واعٍ بأنه قام بعمل نبيل - واقع في حب ذاته وفي نفس الوقت يفكر في صيحات الإعجاب التي ينتظرها من الآخرين.

لكن هنا قد يقول لي أحدهم أنه إلى جانب متاعب الحرب المزعجة والصخب العلني للرجال الطموحين هناك أفعال نبيلة وكريمة تُؤدَّى في صمت، وأن الفضيلة تكون هي مكافأتها نفسها، أن هؤلاء الأخيار بالفعل يشعرون بالرضا لإدراكهم بأنهم كذلك، وهو كل ما ينتظرونه من جزاء مقابل أكثر الأفعال قيمة، وأنه كان هناك من بين الوثنيين رجال أبعد ما يكونون عن الطمع في الشكر والاستحسان عندما كانوا يفعلون طيبا مع الآخرين، وأنهم كانوا يأخذون كل الحذر الذي يمكن تخيله كي يظلوا متوارين عن أولئك الذين منحوهم مساعداتهم؛ وبالتالي ليس للفخر يد في دفع الإنسان قُدُما إلى أعلى درجات إنكار الذات.

ردًا على هذا أقول أنه من المستحيل الحكم على أداء إنسان ما، إلا إذا كنا مطلعين بشكل تام على المبدأ والدافع اللذين يتصرف من منطلقهما. إن الشفقة - رغم أنها الأكثر رقة والأقل أذى من بين كل مشاعرنا - إلا أنها مثال لهشاشة طبيعتنا لا تقل كثيرا عن الغضب أو الفخر أو الخوف. وبشكل عام تملك أضعف العقول النصيب الأكبر منها؛ ولهذا السبب ليس

هناك من هو أكثر رحمة وشفقة من النساء والأطفال. لابد من الاعتراف بأنه من بين كل نقاط ضعفنا تبدو هي الأكثر لطفا، وتحمل أكبر تشابه مع الفضيلة، بل إنه بدون مزيج معتبر منها لما بقى المجتمع، لكن بما أنها أحد بواعث الطبيعة – التي لا تستشير الصالح العام ولا منطقنا الخاص – فقد ينتج عنها الشر بقدر ما يمكن أن ينتج عنها الخير. فقد ساعدت في انتهاك شرف العذراوات، وأفسدت نزاهة القضاة، وأيًا كان من يتصرف من منطلقها كمبدأ وأيًا كان الخير الذي قد يجلبه للمجتمع، فإنه لا يملك شيئا يزهو به غير أنه أشبع عاطفة تصادف أنها مفيدة للناس. لا يوجد أي ميزة في إنقاذ طفل رضيع بريء على وشك السقوط في النار؛ فالفعل نفسه ليس طيبا ولا شريرا، وأي فائدة يا ترى حصل عليها الصغير؟ إننا فقط نقدم خدمة لأنفسنا؛ لأننا لو رأيناه يسقط ولم نجاهد لإيقافه سنتسبب في ألم يجبرنا الحفاظ على الذات على منعه. كذلك لن يكون لدى شخص مسرف ثري – تصادف أنه ذو مزاج ميال لإظهار الأسى والتعاطف ويحب إشباع عواطفه – فضيلة أكبر يتفاخر بها عندما يخفف عن مستحق العطف بما هو شيء تافه بالنسبة له.

لكن مثل هؤلاء البشر الذين يبدون كما لو كانوا لا يخضعون لأي ضعف لديهم ويمكنهم أن يفارقوا ما له قيمة بالنسبة لهم ويقومون بعمل فاضل في صمت بلا دافع آخر غير حبهم للخير، أعترف بأن مثل هؤلاء البشر قد اكتسبوا مفاهيم عن الفضيلة أكثر تهذيبا من هؤلاء الذين تحدثت عنهم حتى الآن، لكن حتى في هؤلاء (الذين لم يمتلئ بهم العالم أبدا حتى الآن) يمكننا أن نكتشف أعراضا للفخر ليست بالصغيرة، ويجب على أكثر الرجال الأحياء تواضعا أن يعترف أن مكافأة الفعل الفاضل – والتي هي الرضا الذي يترتب عنه – ينتج عنها متعة معينة يجلبها لنفسه بالتأمل

في جدارته الشخصية. هذه المتعة جنبا إلى جنب سببها هما علامتان مؤكدتان على الفخر، مثلما يكون الشحوب والارتعاش أمام أي خطر وشيك عَرَضين للخوف.

إذا كان القارئ المبالغ في الشك سيدين للوهلة الأولى هذه التصورات المتعلقة بأصل الفضيلة الأخلاقية، ويظن أنها ربما تكون مهينة للمسيحية، آمل أن يكف عن لومه واستهجانه عندما يأخذ في اعتباره أنه لا يوجد شيء يمكنه أن يجعل العمق الخفي للحكمة الإلهية أكثر وضوحا من هذا الرجل الذي أعدته العناية الإلهية من أجل المجتمع، وعليه ألا يترك نقاط ضعفه ونواقصه تقوده إلى طريق السعادة الزائلة، بل يأخذ بالمثل – من ضرورة ظاهرة لأسباب طبيعية – مسحة من تلك المعرفة التي من خلالها سيصبح كاملا بعد ذلك بالدين الصحيح، ليتجه إلى السعادة الأبدية.

بحث في
طبيعة المجتمع

إن أغلبية الأخلاقيين والفلاسفة قد اتفقوا حتى الآن أنه لا يمكن أن تكون هناك فضيلة دون إنكار للذات، لكن هناك مؤلف راحل – يقرأه الآن كثيرا رجال عقلاء – له رأي مضاد، ويفترض أن البشر يمكنهم أن يكونوا أهل فضيلة بشكل طبيعي دون أي مشاكل أو قسوة على أنفسهم. يبدو أنه يتطلب ويتوقع الخير في جنسه كما نتوقع الطعم الحلو في العنب أو البرتقال الصيني، وإذا تبين أن أي واحدة منها ذات طعم حامض فعلينا أن نعلن بوقاحة أنها لم تصل إلى الكمال الذي تستطيعه طبيعتها. هذا الكاتب النبيل (لأنه اللورد شافتسبري الذي أقصده في كتابه "الطبائع") يتصور أنه بما أن الإنسان مخلوق ليعيش في مجتمع فلابد أن يولد مزودا بنوع ما من الحب للكل – الذي هو جزء منه – وبنزوع إلى السعي نحو خيره وصالحه. وفي متابعته لهذا الافتراض يدعو كل فعل يتم بمراعاة الصالح العام فاضلا، وكل أنانية تستبعد تماما مثل هذه المراعاة رذيلة. بالنسبة لجنسنا البشري ينظر (اللورد شافتسبري) إلى الفضيلة والرذيلة كواقعين دائمين لابد أن يكونا هما نفسهما في كل البلدان والعصور، ويتصور أن أي رجل ذي فهم سليم – باتباع قواعد الحس السليم –

يمكنه ليس فقط أن يكتشف أن العدل والصدق[3] كلاهما موجودان في الأخلاقيات وفي أعمال الفن والطبيعة، بل أن يحكم نفسه كذلك بعقله بنفس القدر من السهولة والاستعداد اللذين يسوس بهما راكب ماهر حصانا جيد التدريب بواسطة اللجام.

إن القارئ المدقق الذي طالع الجزء السابق من هذا الكتاب سيدرك على الفور أنه لا يمكن أن يكون هناك نسقان أكثر تناقضا من نسق جلالته ونسقي. أعترف بأن أفكاره كريمة ورقيقة، إنها إطراء عال للجنس البشري، وقادرة بمساعدة القليل من الحماسة على إلهامنا بأكثر الأحاسيس نبلا فيما يتعلق بمنزلة طبيعتنا السامية. المثير للرثاء أنها غير صحيحة؛ ولم أكن لأذهب بعيدا هكذا لو لم أكن قد أظهرت بالفعل في كل صفحة تقريبا من هذه الدراسة أن سلامة هذه الأفكار تتعارض مع خبرتنا اليومية. لكن حتى لا نترك أقل ظل لاعتراض يمكن أن ينشأ دون رد فإني أنتوي أن أسهب في الحديث عن بعض الأشياء التي لم أتناولها إلا قليلا حتى الآن؛ لكي أقنع القارئ ليس فقط بأن الخصال الطيبة واللطيفة للإنسان ليست هي التي تجعله مخلوقا اجتماعيا متجاوزا للحيوانات الأخرى، لكن علاوة على ذلك أنه سيكون من المستحيل تماما أن ترتقي بأي جماعات كي تصبح أمة حاشدة وغنية ومزدهرة، أو أن تبقيهم وتحافظ عليهم في هذا الوضع عندما يرتقون إليه دون مساعدة مما ندعوه بالشر سواء الطبيعي أو الأخلاقي.

الأفضل لي كي أقوم بما أخذته على عاتقي أن أبدأ أولا بفحص حقيقة

3- باللاتينية في الأصل

العدل والصدق، أي الفاضل[4] الذي تكلم عنه القدماء كثيرا؛ ومعني هذا مناقشة إذا ما كانت هناك قيمة حقيقية أو تميز في الأشياء، بروز لواحد على الآخر، وهو الأمر الذي يفهمه جيدا كل من سيوافق عليه؛ أو أن هناك أشياء قليلة – إن وُجدت – لديها نفس التقدير الممنوح لها، وينطبق عليها نفس الحكم في كل البلاد وكل العصور. عندما ننطلق في رحلة تَقصِّينا لهذه القيمة الجوهرية ونجد شيئا أفضل من آخر، وثالثا أفضل من ذاك، وهكذا .. نبدأ في الاستمتاع بآمال عظمى في النجاح. لكن عندما نلتقي بأشياء عديدة كلها جيدة جدا أو كلها سيئة جدا، فإننا نشعر بالحيرة ولا نتفق دائما مع أنفسنا، ونتفق أقل بكثير مع الآخرين. هناك عيوب مختلفة بقدر ما هناك مواطن جمال، حتى أنه مثلما تتغير الأشكال والموضات ويتنوع البشر في أذواقهم وأمزجتهم؛ سيختلف الإعجاب أو الرفض لتلك العيوب أو الأشياء الجميلة.

لن يختلف محكّمو التصوير أبدا في الرأي عند مقارنة لوحة جميلة بشخبطات مبتدئ، لكنهم كم اختلفوا بغرابة حول أعمال أساتذة الفن العظام ! هناك فِرق وأحزاب بين الخبراء، والقليل منهم يتفقون في تقديرهم للعصور والبلاد، وأفضل اللوحات لا تعطي دائما أفضل الأسعار؛ فلوحة أصلية شهيرة ستساوي دائما أكثر من أي نسخة يمكن أن تصنعها يد فنان غير معروف، رغم أنها قد تكون أفضل. إن القيمة التي يتم تحديدها للوحات لا تعتمد فقط على اسم الفنان والوقت الذي رسمها فيه من عمره؛ لكن بالمثل وبقدر كبير على ندرة أعماله، وعلى ما يزال أمرا غير منطقي بشكل أكبر : نوعية الأشخاص الذين تكون اللوحات

4- باليونانية في الأصل

في حوزتهم وكذلك طول الفترة التي ظلت فيها ملك عائلات كبيرة، ولو كانت الرسومات الموجودة حاليا في (همبتون كورت) رسمتها يد فنان أقل شهرة من "رافائيل"، وكان مالكها شخصية غير عامة قد اضطر إلى بيعها؛ لم تكن لتدر عُشر الأموال التي تُقدَّر بأنها تستحقها الآن بكل أخطائها الجسيمة.

بالرغم من كل هذا فإني سأعترف عن طيب خاطر بأن الحكم الذي يُتخذ عن التصوير قد يصبح ذا مصداقية عالمية، أو على الأقل قد يكون أقل عُرضة للتغيير والزعزعة من أي شيء آخر تقريبا، والسبب واضح؛ هناك معيار ثابت يقوم عليه هذا الحكم. فالتصوير هو محاكاة للطبيعة، نسخ للأشياء التي يراها البشر في كل مكان أمامهم. أتمنى أن يسامحني قارئي الكريم إذا كان التفكير في هذا الابتكار الرائع يجعلني أقوم بتأمل في غير أوانه، رغم أنه معاون كبير للغاية في الوصول إلى مقصدي الأساسي، ألا وهو أنه بقدر ما نحن ذوي قيمة مثل الفن الذي أتكلم عنه؛ إلا أننا مدينون لنقص في مداركنا الأساسية لكل المتع والمباهج الفاتنة التي نتحصل عليها من ذلك الخداع السار. سأوضح ما أقول. إن الهواء والفراغ ليسا شيئين قابلين للرؤية، لكن بمجرد أن نتمكن من الرؤية بأقل انتباه نلاحظ أن حجم الأشياء التي نراها يتناقص درجات كلما كانت بعيدة عنا، ولا شيء غير الخبرة المكتسبة من هذه الملاحظات يمكنه أن يعلمنا أن نقوم بأي تخمينات محتملة للأشياء على البُعد. إذا كان هناك شخص وُلد ضريرا وظل كذلك حتى العشرين من عمره ثم حظى فجأة بنعمة الإبصار فسيشعر بحيرة غريبة أمام اختلاف المسافات، وسيواجه صعوبة كبيرة في التمكن بعينيه وحدهما على الفور من تحديد أي الأشياء أقرب إليه: عمود يمكنه تقريبا لمسه بعصاه أم برج كنيسة يمكن أن يكون

على مبعدة نصف ميل. دعنا ننظر عن قرب قدر الإمكان من ثقب في حائط لا يوجد خلفه غير الهواء الطلق، ولن نتمكن من رؤية شيء غير السماء التي تملأ الفراغ، والتي تبدو قريبة منا مثلها مثل الجزء الخلفي من الحجارة التي تحدد الفضاء في الجزء الخالي منها. هذا الظرف - كي لا أقول النقص - في حاستنا للرؤية يجعلنا عرضة للخداع، وكل شيء - باستثناء الحركة - يمكن تمثيله بواسطة الفن على سطح ما بنفس الطريقة التي نراه بها في الحياة والطبيعة. إذا كان هناك امرء لم يرَ أبدا هذا الفن موضع التنفيذ فقد تقنعه مرآة على الفور بأن مثل هذا الشيء ممكن، ولا يمكنني تجنب التفكير بأن هذا الانعكاس من الأجساد الناعمة والمصقولة جيدا على أعيننا لابد وأنه هو الذي أوحى بأول تعامل مع ابتكاري الرسم والتصوير.

في صنائع الطبيعة تكون القيمة والتميز نسبيين، وحتى في المخلوقات البشرية ما هو جميل في أحد البلدان ليس كذلك في آخر. كم هو متقلب بائع الزهور في اختياراته ! أحيانا التيوليب، وأحيانا الأوريكولا، وأحيانا أخرى القرنفل هو الذي يحظى بتقديره، وفي كل عام تهزم زهرة جديدة في رأيه كل الزهور القديمة، رغم أنها قد تكون أدنى منهم منزلة بكثير في اللون والشكل. منذ ثلاثمائة عام كان الرجال يحلقون ذقونهم مثلما هم الآن تقريبا، طوال هذا الوقت كانوا يربون ذقونهم ويقصونها بأشكال شديدة التنوع، كانت جميعها لائقة عندما كانت مطابقة للموضة بنفس القدر الذي غدت فيه الآن مثيرة للضحك. كم يبدو رجل ما وضيعا وهزليا - حتى وهو حسن الملبس - إذا ارتدى قبعة ذات حافة ضيقة عندما يكون الجميع مرتدين لقبعات عريضة الحواف، ومرة أخرى كم تبدو قبعة شديدة الكبر فظيعة عندما يكون نقيضها هو الموضة لوقت كبير؟ لقد

علمتنا الخبرة أن هذه الموضات نادرا ما تدوم أكثر من عشرة أو اثني عشر عاما، ولابد أن رجلا في الستين من عمره قد شهد خمس أو ست ثورات منهم على الأقل، لكن بدايات هذه التغيرات – رغم أننا قد رأيناها مرارا – تبدو دائما غير مألوفة ومزعجة من جديد في كل مرة تعود فيها. أي امرء يمكنه أن يقرر أيهما أجمل – بعيدا عن الموضة السائدة – أن يستخدم أزرارا كبيرة أم صغيرة في ملابسه؟ إن الطرق الكثيرة لتخطيط الحدائق بتروٍ لا حصر لها، وما يمكن أن يُدعى بالجميل منها يختلف طبقا لأذواق البلاد والعصور المختلفة. من المقبول بشكل عام وجود تنوع كبير في أشكال مساحات العشب والعُقَد والرياض، لكن المستدير منها قد يسر العين مثله مثل المربع، ولا يمكن أن يكون الشكل البيضاوي أكثر ملائمة لمكان مما يمكن للمثلث أن يكونه في مكان آخر، والتفوق الذي يملكه الشكل المُثمَّن على الشكل المسدَّس ليس أكبر بالأرقام مما لدى الثمانية وقت المقامرة من تفوق على الستة بين الاحتمالات.

الكنائس – منذ أصبح المسيحيون قادرين على بنائها – تشبه شكل الصليب، بطرف علوي يشير نحو الشرق، والمعماري الذي يهمل هذا – حيثما توجد مساحة كافية ويمكن عمل ذلك بشكل ملائم – سيُعتقد أنه ارتكب خطأً لا يُغتفر. لكن من الحماقة توقع هذا الشكل في مسجد تركي أو معبد وثني. من بين القوانين المفيدة الكثيرة التي أُصدرت خلال المائة سنة الأخيرة تلك ليس من السهل تسمية قانون ذي فائدة أكبر – وفي نفس الوقت أكثر تخلصا من المشاكل – من ذلك القانون الذي نظَّم ملابس الموتى. وهؤلاء الذين كانوا كبارا بما يكفي لملاحظة الأشياء عندما صدر هذا القانون – وما زالوا أحياء – لابد أنهم يتذكرون الضجة العامة التي أثيرت ضده. في البداية لا يوجد شيء يمكن أن يكون صادما لآلاف

الناس أكثر من كونهم سيُكفَّنون في قماش من الصوف، والشيء الوحيد الذي جعل من هذا القانون محتملا هو أنه كانت هناك مساحة متروكة للناس المحبين للموضة كي يشبعوا ضعفهم دون إفراط؛ بوضع تكاليف الجنازات الأخرى في الاعتبار حيث تقام طقوس الحداد للعديد من الناس، وتُقرع الأجراس للكثيرين. الفائدة التي تحققت للأمة من هذا القانون واضحة للغاية لدرجة أنه لم يمكن أبدا قول أي شيء لإدانته بالمنطق، الأمر الذي جعل حالة الذعر المتخيل ضده تخف كل يوم في سنوات قلائل. وقد لاحظت أن الشباب الذين لم يروا إلا القليل من الناس في أكفانهم هم الذين تواءموا بشكل أسرع مع تلك الفكرة الجديدة، أما هؤلاء الذين كانوا قد دفنوا الكثير من الأصدقاء والأقارب عندما صدر القانون فقد ظلوا كارهين له لوقت أطول، وأتذكر الكثيرين ممن لم يستطيعوا أبدا أن يتصالحوا معه حتى يوم مماتهم. الآن أصبح الدفن في أكفان من الكتان شيئا منسيا تقريبا، والرأي العام هو أنه لا يوجد شيء في الإمكان أكثر لياقة من الصوف، الطريقة الحالية لتكفين الجثة تبين أن إعجابنا أو عدم إعجابنا بالأشياء يعتمد بشكل أساسي على الموضات والعادات، وعلى المبدأ والمثال الذي يضعه أفاضلنا ومن على شاكلتهم ممن نعتقد أنهم أرفع منا مقاما بطريقة أو بأخرى.

في الأخلاق لا يوجد يقين أكبر. فتعدد الزوجات أمر مشين بين المسيحيين، وكل ذكاء ومعرفة لشخص عبقري عظيم دافع عن تعدد الزوجات كان يتم نبذهما باحتقار، لكن تعدد الزوجات ليس شيئا مريعا لشخص محمدي. ما يتعلمه البشر من طفولتهم يستعبدهم، وقوة العادة تلوي عنق الطبيعة، وفي نفس الوقت تحاكيها بطريقة تجعل من الصعب معرفة أيهما متأثرة بالأخرى. فيما مضى في الشرق كانت الأخوات

يتزوجن من إخوتهم، وكان من قبيل التقدير للرجل أن يتزوج أمه. هذه المصاهرات مشينة، لكن من المؤكد أنه - أيا كان الرعب الذي نحسه حيال التفكير فيها - لا شيء في الطبيعة هو المنفر فيها؛ بل ما هو مبني على الشكل والعادة. إن المحمدي المتدين الذي لم يذق أبدا أي مشروب روحي وكثيرا ما رأى أناسا سكارى قد يعاني من نفور هائل من الخمر مثل ذلك النفور الذي قد يشعر به شخص آخر منا لديه أقل أخلاقيات وتعليم من النوم مع أخته، وكلاهما يتصور أن نفورهما ذاك نابع من الطبيعة. ما هو الدين الأفضل؟ سؤال تسبب في أذى أكبر من كل الأسئلة الأخرى مجتمعة. اسأله في بكين، وفي استانبول، وفي روما وستحصل على ثلاث إجابات مميزة مختلفة تماما واحدة عن الأخرى، ومع ذلك جميعها واثقة وقاطعة على حد سواء. المسيحيون متأكدون تماما من زيف خرافات الوثنيين والمحمديين، فهناك اتحاد وتوافق تام بينهم في هذه النقطة، لكن اسأل المذاهب العديدة التي ينقسمون إليها : ما هي كنيسة المسيح الصحيحة؟ وسيخبرك جميعهم أنها كنيستهم، وكي يقنعوك سيتعاركون فيما بينهم مختلفين.

من الواضح إذن أن مطاردة العدل والصدق ليست أفضل بكثير من مطاردة أوزة برية من حيث قلة جدوى الاتكال عليها، لكن هذا ليس هو الخطأ الأكبر الذي أراه فيها. إن التصورات الخيالية حول أن البشر يمكن أن يكونوا أهل فضيلة دون إنكار للذات هي مدخل واسع للرياء، الذي بمجرد أن يصبح معتادا فإننا لن نخدع الآخرين فقط بل سنصبح كذلك مجهولين لأنفسنا تماما، وسيظهر في مثال سوف أعطيه كيف يمكن أن يحدث هذا لشخص ذي مواهب ومعرفة واسعة لرغبته في دراسة نفسه كما ينبغي، شخص يشبه مؤلف (الطبائع) تماما.

إن الرجل الذي تربَّى في دعة وبحبوحة من العيش – إذا كان ذا طبيعة كسولة هادئة – يتعلم أن يجتنب كل شيء مثير للمتاعب، ويختار أن يلجم مشاعره؛ بسبب المضايقات التي تنشأ عن المطاردة المتلهفة للمتعة والاستسلام لكل مطالب أهوائنا أكثر من كونه يفعل ذلك بسبب أي نفور يمتلكه تجاه المتع الحسية، ومن المحتمل أن شخصا تعلم على يدي فيلسوف عظيم – كان شخصا لطيفا وكريما بالإضافة لكونه معلما متمكنا – يمكن أن يكون لديه في مثل هذه الظروف السعيدة رأي في حالته الداخلية أفضل بكثير مما يستحقه حقيقةً، شخص مؤمن أنه فاضل لأن مشاعره ترقد هاجعة. قد يُكوِّن تصورات جميلة عن الفضائل الاجتماعية، واحتقار الموت، ويكتب عنهم جيدا في خلوته، ويتكلم عنهم ببلاغة في صحبة الناس، لكنك لن تراه أبدا وهو يقاتل من أجل بلاده، أو يعمل بكد لاستعادة أي خسائر وطنية. إن امرءا يتعامل مع الميتافيزيقا يمكن أن يرمي بنفسه بسهولة في نوبة حماس، ويصدق بالفعل أنه لا يخشى الموت طالما ظل بعيدا عن النظر. لكنه إذا سُئل طالما كانت لديه تلك الجسارة التي اكتسبها إما من الطبيعة أو من الفلسفة لماذا لم ينضم للجيش عندما دخلت بلاده الحرب، أو عندما رأى أن الأمة تُسرق يوميا من هؤلاء القابضين على دفتها وأن شؤون خزانة الدولة مرتبكة، لماذا لم يذهب إلى المحكمة ويستفيد من كل أصدقائه واهتماماته كي يكون أمينا على خزانة البلاد، ربما تمكَّن بنزاهته وإدارته الحكيمة من إصلاح الدين العام؛ فمن المحتمل أن يرد بأنه يحب التقاعد، وليس لديه طموح آخر غير أن يكون رجلا صالحا، وأنه لم يطمح أبدا في أن يكون لديه أي نصيب في الحكومة، أو أنه يكره كل المداهنة والمواظبة الوضيعة، ورياء المحاكم وصخب العالم. أنا مستعد لتصديقه، لكن ألا يمكن لرجل

ذي طبع كسول وروح خاملة أن يتكلم – ويكون مخلصا في كل هذا – وفي نفس الوقت يُشبع شهواته دون أن يكون قادرا على إخضاعها، رغم أن واجبه يدعوه إلى ذلك. إن الفضيلة تتمثل في الفعل، وكل مَن يمتلك هذا الحب الاجتماعي والمودة الطيبة لجنسه، ويمكنه بحق الميلاد أو الكفاءة أن يطالب بأي مركز وظيفي في الإدارة العامة، لا ينبغي عليه أن يجلس ساكنا عندما يمكنه أن يكون نافعا مفيدا، بل عليه أن يبذل أقصى ما في نفسه لصالح أبناء وطنه من الرعية. أما لو كان هذا الشخص النبيل ذا عبقرية مولعة بالحرب أو مزاج عنيف، فسيختار دورا آخر في دراما الحياة، ويبشر بمذهب مضاد تماما، لأننا دائما ما ندفع منطقنا إلى أي طريق نشعر بالرغبة في السير فيه، وحب الذات يتقرب من كل المخلوقات البشرية مدافعا عن آرائها المختلفة، مقدما لكل فرد الحجج اللازمة لتبرير أهوائه.

هذا الطريق الوسط الذي يتباهون به، والفضائل الوديعة الموصى بها في كتاب (الطبائع)، لا تصلح لشيء إلا لتربية ذكور النحل، وقد تؤهل الإنسان للمتع الغبية لحياة الرهبنة، أو في أفضل الحالات تؤهله ليكون قاضي صلح في الأرياف؛ لكنها لن تؤهله أبدا للعمل والاجتهاد، أو تحثه على تحقيق المنجزات العظيمة والمهام الخطيرة. إن حب الإنسان الطبيعي للراحة والكسل، وميله لإشباع متعه الحسية، لن تعالجهما المبادئ. لا يمكن إخضاع عاداته وأهوائه القوية العنيفة إلا عن طريق معاناة عنف أكبر. انصح واشرح لجبان لا معقولية مخاوفه ولن تجعل منه شجاعا بأكثر ما يمكنك أن تجعله أطول بدعوته أن يكون بطول عشرة

أقدام، بينما السر وراء إثارة الشجاعة – كما أعلنته في الملاحظة R [5] – معصوم من الخطأ تقريبا.

الخوف من الموت يكون على أشده عندما نكون في ريعان شبابنا، وشهواتنا ما زالت قوية؛ عندما تكون أبصارنا حادة، وآذاننا سريعة السمع، وكل عضو يؤدي وظيفته. السبب واضح؛ لأن الحياة آنذاك تكون شهية للغاية ونكون نحن أنفسنا أكثر قدرة على الاستمتاع بها. كيف يحدث إذن أن يقبل رجل ذو شرف ومكانة تحديا ما بسهولة هكذا، رغم أنه في الثلاثين من عمره وفي أتم صحة؟ إن ما يهزم خوفه هو إحساسه بالفخر، لأنه عندما يكون فخره وكبرياؤه غير معنيين سيظهر خوفه بشدة على نحو فاضح. إذا لم يكن معتادا على البحر دعه فقط يكون وسط عاصفة، أو إذا لم يمرض أبدا من قبل فليُصَب فقط باحتقان في الحلق أو بحُمَّى خفيفة وسيُظهر جزعا كبيرا تتضح منه القيمة الثمينة التي يحملها للحياة. لو كان الإنسان متواضعا بالفطرة ومضادا للإطراء لما استطاع السياسي أبدا الوصول إلى غاياته، أو معرفة ماذا يفعل به. بدون الرذائل كان تميز الجنس البشري سيظل مجهولا للأبد، وكل قيمة جعل الإنسان نفسه مشهورا بها في هذا العالم هي دليل قوي ضد هذا النسق اللطيف. (نسق شافتسبري – المترجم)

لو كانت شجاعة المقدوني العظيم (الإسكندر – المترجم) بلغت درجة مذهلة عندما حارب وحده حامية بأكملها، فإن جنونه لم يكن أقل عندما

5- إشارة إلى كتابه الأشهر (خرافة النحل) والذي ضم معظم كتاباته، وتقول الملاحظة R : الشيء الوحيد ذو الوزن الذي يمكن قوله ضد مفهوم الشرف الحديث هو أنه مناقض للدين بشكل مباشر. فأحدهما يدعوك إلى تحمل الأذى بصبر، والآخر يخبرك أنك إذا لم تعترض عليه فأنت غير مؤهل للحياة

تخيل نفسه إلها، أو على الأقل تشكك فيما إذا كان إلها أم لا. وبمجرد أن نقوم بهذا التأمل نكتشف كلا من الحماسة والغلو في الحماسة اللذين أبقيا معنوياته عالية وسط أشد الأخطار المحدقة، وحملاه عبر كل المصاعب والمتاعب التي مر بها.

لم يكن هناك أبدا في هذا العالم مثال لقاض متمكن وكامل ألمع من «شيشرون[6]». عندما أفكر في حرصه وحذره، والمخاطر الحقيقية التي استخف بها، والآلام التي تحملها من أجل أمان روما، حكمته وحصافته في كشف وإحباط حيل أجرأ وأبرع المتآمرين، وأفكر في نفس الوقت في حبه للأدب والفنون والعلوم، وكفاءته في الميتافيزيقا، في دقة استنتاجاته، وقوة بلاغته، وأدب أسلوبه، وتلك الروح الأنيقة التي تسري في كتاباته، أقول أني عندما أفكر في كل هذه الأشياء معا يصعقني الذهول، وأقل ما يمكنني قوله عنه أنه كان رجلا استثنائيا. لكن عندما أضع صفاته الطيبة الكثيرة تحت دائرة الضوء يتضح لي على الجانب الآخر أنه لو كان غروره أقل من تميزه الهائل، لما استطاع أبدا إدراكه الجيد ومعرفته بالعالم – وهما ما امتلكه بشكل بارز – أن يجعلاه ذلك الرائد والنذير الكبير والمزعج كما أطرى على نفسه شخصيا، أو لعاقباه بدلا من إعلان جدارته بأن يكتب قصيدة لو كتبها تلميذ في مدرسة لتعرض للسخرية. وانصيباه[7]!

6- ماركوس توليوس كيكرو (106 – 43 ق م) والمعروف باسم شيشرون في العربية. كان فيلسوفا وسياسيا ومحاميا وخطيبا وواليا ومشرعا دستوريا رومانيًا. أثر أسلوبه في الكتابة على النثر اللاتيني والأوروبي حتى القرن التاسع عشر الميلادي

7- قصيدة أو فورتونا قصيدة لاتينية كُتبت في بدايات القرن الثالث عشر وهي شكوى من القدر وفورتونا إلهة الحظ في الأسطورة الرومانية

كم كانت أخلاقيات "كاتو[8]" العنيد صارمة وقاسية، كم كانت فضيلة ذلك المُدافع الكبير عن الحرية الرومانية ثابتة وصادقة ! لكن بالرغم من التكافؤ الذي تمتع به هذا الرواقي، ومقابل كل هذا الإنكار للذات والتقشف اللذين مارسهما، فقد ظل متواريا لوقت طويل، وأخفى تواضعه الغريب عن العالم - وربما عن نفسه - لفترة كبيرة هشاشة قلبه التي دفعته دفعا إلى البطولة؛ لكنها خرجت إلى النور في المشهد الأخير من حياته، وبانتحاره اتضح جليا أنه كان محكوما بقوة مستبدة تفوقت على حبه لبلاده، وأن الكراهية العنيدة والحقد المفرط اللذين حملهما تجاه المجد والعظمة الحقيقية والجدارة الشخصية لقيصر كانا هما اللذان تحكما لوقت طويل في كل أفعاله وذلك تحت غطاء أكثر الادعاءات نُبلا. لو لم يتسلَّط هذا الدافع العنيف على رجاحة عقله البارعة ربما لم يكن سينقذ نفسه فقط، بل معظم أصدقائه كذلك الذين حطمتهم خسارته، ولأصبح على الأرجح الرجل الثاني في روما لو تنازل وقبلها. لكنه كان يعرف الذكاء اللا محدود والكرم اللانهائي للمنتصر، كانت رحمة قيصر هي ما يخشاه كاتو، ولذلك اختار الموت لأنه كان أقل صعوبة على كبريائه من فكرة إعطاء خصمه الفاني فرصة مغرية هكذا لإظهار سماحة روحه - التي كان قيصر سيجدها في العفو عن عدو لدود مثل كاتو وعرض صداقته عليه - والتي يظن الإنسان العاقل أن الفاتح الذكي وكذلك الطموح لم يكن ليفلتها لو جرؤ الآخر على الاستمرار في العيش.

8- ماركوس بوركيوس كاتو (95 – 46 ق م) والمعروف كذلك باسم كاتو الصغير للتمييز بينه وبين جده الأكبر. كاتو الصغير كان سياسيا ورجل دولة في أواخر الجمهورية الرومانية كما كان خطيبا شهيرا وأحد أتباع الفلسفة الرواقية ، اشتهر بعناده ونزاهته ومحاربته للفساد الذي انتشر في عصره وصراعه الطويل ضد يوليوس قيصر الذي انتهى بانتحاره عام 46 رافضا الاستمرار في العيش في عالم يحكمه القيصر

هناك حجة أخرى لإثبات النزعة الطيبة والمودة الحقيقية اللتين نحملهما بشكل طبيعي لجنسنا البشري؛ وهي حبنا للصحبة، والنفور الذي يملكه البشر بشكل عام في أحاسيسهم تجاه الوحدة، أكثر من المخلوقات الأخرى. تكتسي هذه الحجة بريقا لامعا في كتاب (الطبائع) وتنطلق في لغة جيدة للغاية وعلى أفضل وجه. في اليوم التالي بعد أن قرأتها لأول مرة، سمعت جماعة كبيرة من الناس ينادون على سمك رنجة طازج، جعلني ذلك مع التفكير في الأسراب الهائلة من الرنجة والأسماك الأخرى التي تم صيدها معها سعيدا للغاية، رغم أني كنت وحيدا؛ لكن بينما كنت أسلي نفسي بهذه الفكرة أتى شخص خامل سفيه - كان من سوء حظي أن يعرفني - وسألني عن أحوالي، رغم أني كنت ولا أخشى أن أقول أني بدوت في أفضل صحة وأطيب حال كما كنت دائما في حياتي. نسيت ما أجبته به، لكني أتذكر أني لم أستطع التخلص منه لفترة لا بأس بها، وشعرت بكل التوتر الذي يشكو منه صديقي "هوراس[9]" نتيجة اضطهاد أصحاب الطبيعة التي على نفس الشاكلة.

آمل ألا أجد ناقدا حصيفا يعلن أني كاره للبشر من هذه القصة القصيرة؛ كل من يفعل ذلك مخطئ للغاية. فأنا عاشق كبير للصحبة، وإذا لم يكن القارئ متعبا تماما مني - قبل أن أوضح ضعف وسخافة ذلك النموذج من الإطراء المقدَّم لجنسنا البشري - والتي كنت أتكلم عنها الآن توًا؛ فسأعطيه وصفا للإنسان الذي كنت سأختاره للتحدث معه، مع وعد بأنه قبل أن ينتهي مما قد يعتبره للوهلة الأولى استطرادا غريبا عن مقصدي، سيكتشف فائدته.

9- كوينتس هوراتيوس فلاكس (65 – 8 ق م) أو هوراس كان شاعرا غنائيا وناقدا أدبيا رومانيا في زمن أغسطس قيصر عُرف بقصائده الغنائية ومقطوعاته الهجائية

ينبغي أن يكون متشربا تماما بمفهومي الشرف والعار عبر تعليم مبكر ومتقن، وأن يكون مكتسبا لنفور ثابت من كل شيء لديه أقل ميل للوقاحة أو الفظاظة أو الوحشية. ينبغي أن يكون ضليعا في اللغة اللاتينية وليس جاهلا باليونانية، ويفهم علاوة على ذلك لغة أو اثنتين من اللغات الحديثة إلى جانب لغته الأم. ينبغي عليه أن يكون مطلعا على أساليب وعادات القدماء، وفي نفس الوقت خبيرا في تاريخ بلده وعادات العصر الذي يعيش فيه. ينبغي عليه أن يكون قد درس إلى جوار الأدب علما نافعا ما، وزار بعض المحاكم والجامعات الأجنبية، واستفاد استفادة حقيقية من السفر. ينبغي عليه أحيانا أن يجد متعته في الرقص والمبارزة وركوب الجياد الأصيلة، ومعرفة القليل من الصيد والرياضات العنيفة دون التعلق بأي منها؛ وينبغي أن يعاملها جميعا إما كتدريبات من أجل الحفاظ على الصحة، أو كأشكال من التسلية لا ينبغي لها أبدا أن تتعارض مع العمل أو مع الوصول إلى مؤهلات أكثر قيمة. ينبغي أن يكون لديه لمحة عن علم الهندسة والفلك بالإضافة إلى التشريح واقتصاد الأجساد البشرية. معرفة الموسيقى لدرجة العزف هي بلا شك إنجاز، لكن هناك الكثير مما يقال ضد هذا، وبدلا من ذلك سأجعله يعرف الكثير من الرسم بما يكفي لعمل منظر طبيعي، أو شرح معنى أي شكل أو موديل نقوم بوصفه لكن بدون لمس قلم رصاص. ينبغي عليه أن يكون معتادا منذ مرحلة مبكرة على صحبة النساء المحتشمات، وألا يمر عليه أسبوعان أبدا دون أن يتحدث مع السيدات.

لن أذكر الكبائر مثل الكفر والزنا والمقامرة وشرب الخمر والتشاجر، فحتى أكثر أنواع التعليم حقارة تحمينا منها. سأوصيه دائما بممارسة الفضيلة، لكني لست من ذوي الجهل الأعمى بأي شيء يحدث من الرجال

في المحاكم أو المدن. من المستحيل أن يكون الإنسان كاملا، ولذلك هناك أخطاء سأتغاضى عنها إذا لم أستطع منعها، وإذا حدث بين سن التاسعة عشرة وسن الثالثة والعشرين أن تغلبت حمية الشباب على عفته وتم ذلك بحرص، إذا حدث في مناسبة استثنائية وتغلبت عليه الإغراءات الضاغطة من أصدقاء مرحين فشرب أكثر مما يتسق مع الرزانة والاعتدال الصارمين، وفعل ذلك نادرا جدا ووجده لا يتعارض مع صحته ومزاجه؛ أو إذا حدث نتيجة لحماسته العالية ووجود تحدٍ كبير في حالة واحدة أن تم جره إلى معركة كان من الممكن أن ترفضها أو تمنعها الحكمة الصحيحة والإلتزام الأقل صرامة بقواعد الشرف، ولم يحدث له ذلك أكثر من مرة واحدة؛ أقول إذا حدث أن كان مذنبا بتلك الأمور ولم يتكلم عنها أبدا ناهيك عن أن يتفاخر بها هو نفسه؛ فمن الممكن الصفح عنها أو على الأقل إغفالها في ذلك السن الذي حددته، وذلك إذا توقف عن ذلك بعدها واستمر عاقلا بعدها دائما. إن كوارث الشباب نفسها أحيانا ما تخيف الرجال وتدفعهم نحو تعقل أكثر ثباتا على الأرجح من ذلك الذي يمكن أن يكونوا سادته بدونها. ولحفظه من الفساد الأخلاقي والأمور الفاضحة بشكل واضح لا يوجد شيء أفضل من تمكينه من مدخل حر إلى عائلة أو عائلتين نبيلتين حيث يعتبر تردده عليهما واجبا والتزاما، وفي الوقت الذي تحفظ فيه بهذه الطريقة كبرياءه، يظل هو في خوف مستمر من العار.

رجل ذو ثروة معقولة، قريب جدا من تحقيق المهارات التي أردته أن يكون عليها، والذي مازال يُطوِّر نفسه ويرى العالم حتى يصل إلى سن الثلاثين؛ لا يمكن رفض التحدث معه، على الأقل طالما هو في صحة وثراء وليس لديه ما يفسد مزاجه. عندما يلتقي مثل هذا الرجل مع ثلاثة أو أربعة من نظرائه بالصدفة أو عن موعد، ويتفق جميعهم على تمضية

بضعة ساعات سويا، فهذا هو ما أدعوه بالصحبة الجيدة. لا يقال فيها إلا ما هو مفيد أو مُسلي لكل إنسان ذي حس. من الممكن ألا يكونوا دائما على نفس الرأي، لكن لا يمكن أن يكون هناك خلاف بين أي منهم إلا حول مَن سيتنازل أولا للآخر المختلف عنه. شخص واحد فقط يتكلم في كل مرة، ولا يعلو صوته أكثر مما هو ضروري كي يفهمه ذلك الذي يجلس في أبعد مكان عنه. أكبر متعة يستهدفها كل واحد منهم هي أن ينال رضا إسعاد الآخرين، وهو الأمر الذي يعرفون جميعا أنه يمكن أن يحدث بشكل فعال عن طريق الإصغاء بانتباه وبوجه القبول؛ كما لو أننا قلنا أشياء رائعة نحن أنفسنا.

أغلب الناس أيا كان ذوقهم سيحبون مثل ذلك الحديث، ويفضلونه حقا عن أن يكونوا وحدهم؛ حين لا يعرفون كيف يقضون وقتهم. لكن إذا كان بإمكانهم شغل أنفسهم في شيء يتوقعون منه حالة من الرضا أكثر قوة أو استمرارا؛ فسيحرمون أنفسهم من تلك المتعة، ويتبعون ما كان ذا نتائج أعظم لهم. لكن ألا يُفضِّل المرء - رغم أنه لم يرَ إنسيا طوال أسبوعين - أن يظل وحيدا لفترة أطول عن أن يكون في صحبة رفاق صاخبين يجدون بهجة في الخلاف، ويُمجِّدون النبش وراء العراك؟ ألا يفضل المرء الذي يمتلك كتبا أن يقرأ للأبد أو يعد نفسه للكتابة عن موضوع أو آخر بدلا من أن يكون كل ليلة مع رجال جماعة لا يرون خيرا في البلاد بينما خصومهم يتألمون كي يعيشوا فيها؟ ألا يفضل المرء أن يكون وحده لمدة شهر ويذهب للنوم قبل الساعة السابعة عن أن يختلط بصائدي الثعالب الذين يقضون النهار بأكمله محاولين عبثا أن يكسروا أعناقها، ويتجمعون ليلا في محاولة أخرى للتغلب على حيواتهم بالشرب وللتعبير عن مرحهم بأصوات خرقاء أعلى وهم بين جدران أربعة من

عواء أندادهم الأقل إزعاجا وهم في الخلاء؟ أنا لا أحمل تقديرا كبيرا لرجل لا يفضل أن يجهد نفسه بالمشي، أو أن ينثر الدبابيس في كل أرجاء الحجرة لكي يجمعها مرة أخرى إذا أُغلقت كل الأبواب من حوله عن أن يظل لمدة ست ساعات في صحبة عشرة من البحارة السوقيين في اليوم الذي حصلت فيه سفينتهم على مستحقاتها.

ومع ذلك فأنا أعترف أن النسبة الأكبر من الجنس البشري ستستسلم للأمور التي ذكرتها عوضا عن البقاء في وحدة لوقت طويل. لكني لا أستطيع فهم السبب في تفسير هذا الحب للصحبة، هذه الرغبة القوية في الاجتماع والأنس على أنها أمر في صالحنا كثيرا، والزعم بأنها علامة على قيمة جوهرية في الإنسان لا توجد في الحيوانات الأخرى. لأنه من الخطأ تماما محاولة استخدامها لإثبات صلاح طبيعتنا ووجود حب وافر داخل الإنسان يمتد فيما وراء ذاته ليغمر بقية نوعه، وبفضله أصبح كائنا اجتماعيا، فهذا التلهف على الصحبة والنفور من البقاء في وحدة لابد وأنه كان أكثر وضوحا وعنفا لدى أفضل أبناء هذا النوع؛ الرجال ذوي العبقرية والمواهب والإنجازات الأعظم، وهؤلاء الأقل خضوعا للرذيلة. إن العقول الأضعف – لهؤلاء الأقل قدرة على التحكم في عواطفهم – والضمائر المُذنبة التي تمقت التأمل، والتافهين من غير القادرين على إنتاج أي شيء مفيد خاص بهم، هم أكبر أعداء العزلة، وسيتعاملون مع أي صحبة بدلا من أن يكونوا بدونها. بينما البشر من ذوي الحس والمعرفة – الذين يمكنهم التفكير والتأمل في الأمور وقلما تزعجهم عواطفهم – يمكنهم تحمل البقاء وحدهم لأطول وقت ممكن دون ممانعة، وكي يتجنبوا الضوضاء والحماقة والسفاهة سيفرون بعيدا عن عشرين صحبة، وبدلا من ملاقاة أي شيء مرفوض من أذواقهم سيفضلون غرفهم أو حديقة

صغيرة عن حجرة طعام، أو الصحراء عن صحبة بعض الرجال.

لكن دعونا نفترض أن حب الصحبة غير منفصل تماما عن نوعنا حتى أنه لا يوجد إنسان بمقدوره تحمل أن يكون وحيدا للحظة واحدة، فما هي الاستنتاجات التي يمكن الوصول إليها من ذلك؟ ألا يحب الإنسان الصحبة – مثلما يحب كل شيء آخر – من أجل مصلحته هو؟ لا توجد صداقات أو معاملات حسنة دائمة ليست متبادلة. في كل لقاءاتك الأسبوعية أو اليومية من أجل التسلية – وكذلك في أعيادك السنوية واحتفالاتك الأكثر رسمية – كل عضو يحضرها لديه غاياته الخاصة، والبعض يترددون على نادٍ لم يكونوا ليذهبوا إليه أبدا إذا لم يكونوا على قمته. عرفت رجلا كان هو نبي جماعة الصحاب، كان مخلصا جدا للصحبة ويشعر بالتوتر إزاء أي شيء يمكن أن يعيقه عن الحضور في الساعة المحددة، لكنه ترك جماعته بأسرها بمجرد أن أضيف إليها شخص آخر استطاع أن يتماشى معها ونازعه في زعامته. هناك أناس غير قادرين على إقامة حجة، لكنهم أشرار لدرجة الابتهاج لسماع الآخرين يتجادلون، ورغم أنهم لا يشغلون أنفسهم أبدا بالجدال؛ إلا أنهم يعتقدون أن الصحبة لا طعم لها إذا لم يتمكنوا من الحصول على تلك التسلية. إن المنزل الجيد، والأثاث الفخم، والحديقة الجميلة، والخيول والكلاب، والأسلاف والأقارب، والجمال والقوة، والتميز في أي شيء أيًا كان، والرذائل والفضائل كذلك؛ كلها قد تكون عوامل مساعدة كي تجعل البشر يتوقون إلى المجتمع، على أمل أن ما يُقيِّمون أنفسهم بناء عليه سيصبح في وقت أو آخر موضوع الحديث، وسيمنحهم رضا داخليا. حتى أكثر الأشخاص أدبا في العالم – ومثل هؤلاء تحدثت عنهم في البداية – لا يمنحون متعة للآخرين لن يتم ردها لمصلحة حبهم لذواتهم، ولا تتمركز في النهاية فيهم، مهما لفوا وداروا حول الموضوع.

لكن الدليل الأكبر على أنه في كل نوادي وتجمعات الأشخاص اللائقين للحديث يولي كل شخص الاهتمام الأكبر لنفسه، هو أن الشخص اللامبالي الذي يفضل أن يدفع أكثر من المطلوب عن أن يجادل، الشخص اللطيف المعشر الذي لا يُستثار أبدا ولا يشعر بالإهانة بسرعة، الشخص الطيع والكسول الذي يكره النزاعات ولا يجادل أبدا من أجل الانتصار، هو محبوب الصحبة في كل مكان، بينما الإنسان ذو الحس والمعرفة الذي لن ينخدع أو يقبل كلاما بعيدا عن منطقه، الإنسان ذو العبقرية والروح العالية الذي يمكنه أن يقول أشياء حادة ولمَّاحة، رغم أنه لا يقدح أبدا إلا ما يستحق ذلك، الإنسان ذو الشرف الذي لا تصدر عنه إهانة ولا يقبلها، ربما يكون محط تقدير لكنه نادرا ما يكون محبوبا بنفس القدر الذي يحظى به إنسان أضعف وأقل موهبة.

في هذه الأمثلة تنبع الطبائع الاجتماعية الودودة من ابتداعنا لإحساسنا بالرضا بشكل كامل، لذلك في مناسبات أخرى تنطلق من الحياء الطبيعي للإنسان والاهتمام الموسوس الذي يوليه لنفسه. قد يكون هناك شخصان من أهل لندن يجبرهما عملهما على ألا يقيمان تجارة فيما بينهما، ربما يعرفان ويريان ويمران ببعضهما البعض كل يوم في البورصة دون أن يتبادلا تحية مجاملة أكثر مما قد يتبادلها ثَوْران، دعهما يتقابلان في (بريستول) وسيخلع كل منهما قبعته للآخر، ويدخلان في محادثة لدى أدنى فرصة، ويسعدان بصحبة بعضهما البعض. عندما يلتقي فرنسيون وإنجليز وهولنديون في الصين أو أي بلد وثني آخر ولكونهم جميعا أوروبيين فإنهم ينظرون لبعضهم البعض كأبناء بلد واحد، وإذا لم تتصادم العواطف سيشعرون بميل طبيعي لأن يحب كل منهم الآخر. كلا بل إذا اضطر رجلان متخاصمان إلى السفر معا، فإنهما غالبا سيهملان

عداواتهما جانبا ويكونان لطيفين ويتحادثان بطريقة ودودة؛ خاصة إذا لم يكن الطريق آمنا، والاثنان غريبين في المكان الذي يتوجهان إليه. هذه الأشياء يعزوها الحكماء السطحيون إلى (اجتماعية الإنسان)؛ أي ميله الطبيعي للصداقة وحب الصحبة، لكن أي شخص سيفحص الأمور كما يجب وينظر داخل الإنسان بدقة أكبر سيجد أننا في كل تلك المناسبات نسعى فقط لتعزيز مصلحتنا، وأننا مدفوعون بالأسباب المزعومة بالفعل.

ما سعيت إليه حتى الآن هو إثبات أن الجمال والصدق والتفوق والقيمة الحقيقية للأشياء أمور غير مستقرة ومتغيرة في الأغلب الأعم مثلما تتغير الموضات والعادات، وبالتالي فإن الاستدلالات المستنبطة من يقينيتها غير ذات أهمية، والتصورات الكريمة المتعلقة بالصلاح الطبيعي للإنسان هي تصورات ضارة لأنها تميل إلى التضليل، وهي مجرد وهم؛ وقد بيَّنت صدق الفرضية الأخيرة بأوضح الأمثلة من التاريخ. لقد تحدثت عن حبنا للصحبة ونفورنا من العزلة، وفحصت بشكل تام الدوافع المتعددة لهما، وأظهرت أنها جميعا تتمركز في حب الذات. وأنوي الآن أن أبحث في طبيعة المجتمع، وبالغوص في نشأته نفسها؛ أوضح أن الخصال الشريرة والكريهة للإنسان – وليست الطيبة واللطيفة – أن عيوبه والرغبة في الامتيازات الموهوبة للمخلوقات الأخرى هي الأسباب الأولى التي جعلت الإنسان اجتماعيا أكثر من الحيوانات الأخرى بعد أن فقد الفردوس على الفور. وأنه لو بقي على براءته الفطرية واستمر في التمتع بالنعم التي صاحبتها؛ لما كان هناك ظل من احتمال أن يصبح ذلك المخلوق الاجتماعي الذي هو عليه الآن.

طوال هذا الكتاب جرى بشكل وافٍ إثبات كم أن الشهوات والعواطف

ضرورية لازدهار جميع المهن والحرف، وأنها خصالنا السيئة – أو على الأقل تتسبب فيها – ولا أحد ينكر ذلك. يبقى إذن أنه ينبغي عليَّ أن أقدِّم مجموعة العقبات التي تعيق وتربك الإنسان في العمل الكادح الذي يعمل فيه بشكل دائم؛ الحصول على ما يريده، والذي يُدعى بكلمات أخرى (مهمة الحفاظ على الذات)، وفي نفس الوقت عليَّ أن أثبت أن اجتماعية الإنسان تنشأ فقط من هذين الأمرين : تعدد رغباته، والمقاومة المستمرة التي يلاقيها في سعيه لإشباعها.

تتعلق العقبات التي أتكلم عنها إما بإطارنا أو بالعالم الذي نعيش فيه – أقصد ظروفه – منذ أن حقت عليه اللعنة. وقد حاولت كثيرا أن أتفكر في الأمرين اللذين ذكرتهما سابقا كل على حدة؛ لكني لم أستطع أبدا أن أبقيهما منفصلين، فدائما ما يتداخلان ويختلطان ببعضهما البعض، وفي النهاية يُكوِّنان معا فوضى مرعبة من الشر. كل العناصر أعداء لنا؛ فالماء يُغرق والنار تحرق هؤلاء الذين يقتربون منهما بشكل أخرق. والأرض تُنبت نباتات وخضروات أخرى ضارة بالإنسان في أماكن كثيرة، في الوقت الذي تُطعم فيه وترعى مجموعة من المخلوقات المؤذية له، وتتحمل حشدا من السموم التي تسكنها. لكن أكثر العناصر شرا هو ذلك الذي لا نستطيع العيش دونه للحظة واحدة؛ فمن المستحيل أن نعيد ذكر جميع الشرور التي تأتينا من الهواء والطقس، ورغم أن الغالبية العظمى من الجنس البشري عملوا وما زالوا على حماية نوعهم من قسوة الهواء، إلا أنه لا يوجد حتى الآن عمل أو فن قادر على إيجاد تأمين ما ضد الغضب الوحشي لبضعة نيازك.

من الصحيح أن الأعاصير لا تحدث إلا نادرا، والقليل من البشر تبتلعهم

الزلازل، أو تلتهمهم الأسود، لكن في الوقت الذي نفلت فيه من تلك الشرور الكبرى تضطهدنا التفاهات. يالها من تشكيلة واسعة من الحشرات تلك التي تعذبنا، أيّ أسراب منها تهيننا وتتسلَّى بنا دون عقاب ! إن أحقر الوساوس لم تكن لتسحقنا وتتغذَّى علينا كما تتغذَّى الماشية على حقل – والذي غالبا ما يضج منها – لو كانت تستخدم ثروتها باعتدال، لكن مرة أخرى هنا تصبح رأفتنا رذيلة، وتغدو قسوتها واحتقارها لنا على شفقتنا شديدي التجاوز؛ حتى أنها تجعل من رؤوسنا زرائب لها، وتلتهم صغارنا إذا لم نكن يقظين يوميا في مطاردتها وتدميرها.

لا يوجد شيء طيب في الكون بأكمله بالنسبة للإنسان ذي الصورة الأكثر كمالا، حتى لو ارتكب أقل خلل في استخدامه سواء عن طريق الخطأ أو الجهل؛ لا توجد أي براءة أو نزاهة يمكنها حماية الإنسان من آلاف الشرور التي تحيط به. في المقابل كل شيء شرير، ولم تعلمنا الحيلة ولا الخبرة كيف نحوله إلى نعمة. لذلك ياله من مجتهد ذلك الفلاح الذي يذهب إلى محصوله في وقت الحصاد ويقيه من المطر، والذي لم يكن ليستمتع به أبدا لولا ذلك ! وكما تختلف الفصول بالنسبة للطقس، فقد علمتنا الخبرة أن نستغلها على نحو مختلف، ويمكننا أن نرى في جزء من الكرة الأرضية فلاحا يرمي البذور بينما في جزء آخر نراه يحصد الزرع، لعلنا نعرف من كل هذا كم تغيرت هذه الأرض كثيرا منذ هبوط والدينا الأولين. لأننا لو تتبعنا الإنسان منذ أصله الإلهي، أصله الجميل، حين لم يكن فخورا بحكمته المكتسبة بالتعليم المتغطرس أو الخبرة المملة؛ بل موهوبا بالمعرفة الكاملة منذ اللحظة التي تشكل فيها. أقصد حالة البراءة التي لم يكن فيها حيوان ولا نبات على وجه الأرض ولا معدن تحتها ضارا به، وهو نفسه في أمان من شرور الهواء وغيره من الأضرار،

حين كان راضيا بضرورات الحياة التي أمدته بها الأرض التي سكنها ودون مساعدة منه. عندما لم يكن واعيا بالذنب بعد، وجد نفسه في كل مكان السيد الفريد المطاع للجميع، لكن عظمته تلك لم تؤثر فيه فاستغرق بكليته في تأملات سامية حول لا نهائية خالقه، الذي كان يتعطف عليه يوميا بشكل واضح ويتحدث إليه، ويزوره دون خسارة.

في هذا العصر الذهبي لا يمكن الزعم بوجود سبب أو احتمالية لتفسير قيام البشر بتنشئة أنفسهم في مثل تلك المجتمعات الكبيرة التي قامت في العالم بعد ذلك على قدر ما نستطيع تقديمه من رصد محتمل لذلك. حيثما يكون لدى الإنسان ما يرغبه، ولا شيء يضايقه أو يزعجه، فلا شيء يمكن أن يزيد من سعادته، ومن المستحيل ذكر حرفة أو فن أو علم أو مكانة أو وظيفة لن تكون زائدة غير ضرورية في مثل هذه الحالة المباركة. لو تتبعنا هذه الفكرة سندرك بسهولة أنه لا توجد مجتمعات نبعت من فضائل الإنسان اللطيفة وخصاله الرقيقة، بل على العكس لابد وأنها جميعا تستمد أصولها من احتياجاته ونواقصه وتعدد شهواته. سنجد كذلك أنه كلما ظهر كبرياؤهم وغرورهم واتسعت رغباتهم، كلما زادت قدرتهم على النشوء في مجتمعات كبيرة وكثيرة العدد.

لو كان الهواء دائما غير مؤذ لأجسادنا العارية وممتعا لتفكيرنا كما هو بالنسبة لأغلب الطيور في الطقس المعتدل، ولو لم يكن الإنسان ممسوسا بالكبرياء والترف والرياء وكذلك بالشهوة، فإني لا أستطيع أن أفهم ماهية الداعي الذي دعانا لاختراع الملابس والبيوت. لن أقول شيئا عن المجوهرات والحليات واللوحات والمنحوتات والأثاث الفخم وكل ما سماه الأخلاقيون المتزمتون بغير الضروري والزائد، لكن لو لم نكن نشعر بالتعب سريعا

من السير على الأقدام، ولو كنا في خفة ورشاقة بعض الحيوانات الأخرى، لو كان البشر بطبيعتهم ميالين للعمل الشاق، وليس فيهم من يفرطون في البحث عن راحتهم والاستمتاع بها، وكانوا كذلك خالين من الرذائل الأخرى، وكانت الأرض مستوية وثابتة ونظيفة في كل مكان؛ من كان سيفكر في المركبات أو يخاطر بالركوب على ظهر حصان؟ ما الداعي الذي يجعل دولفين يبحث عن سفينة، أو أي عربة سيطلب نسر أن يسافر فيها؟

آمل أن يعرف القارئ أني أقصد بالمجتمع كيانا سياسيا يتم فيه إخضاع الإنسان إما عن طريق قوة أعلى أو عن طريق الإقناع، وتحويله من حالته المتوحشة كي يصبح كائنا منضبطا يمكنه أن يجد غاياته الشخصية في العمل من أجل الآخرين، وحيث يصير كل عضو تابعا للكل تحت رئيس واحد أو شكل آخر من أشكال الحكومات، ويتم صياغتهم جميعا بإدارة ماكرة كي يعملوا وكأنهم شخص واحد. لأننا لو كنا نقصد بالمجتمع عددا من الناس يبقون سويا دون حكم أو حكومة من منطلق ميل طبيعي لنوعهم أو حب للصحبة – كقطيع من الأبقار أو الخراف – فإنه لن يكون هناك مخلوق في العالم يفوق الإنسان في عدم ملائمته للمجتمع؛ لأن مائة من البشر الأنداد غير الخاضعين لأي تبعية أو خوف من أي رئيس على وجه الأرض لن يمكنهم العيش مستيقظين معا لأكثر من ساعتين دون شجار، وكلما زادت المعرفة والقوة والذكاء والشجاعة والعزم بينهم كلما زاد الأمر سوءا.

من المحتمل أن يحتفظ الآباء في الحالة الوحشية للطبيعة بسلطة على أطفالهم، على الأقل بينما هم في حالة القوة، وأنه حتى بعد ذلك يمكن

لتذكر ما مر به الآخرون أن ينتج فيهم شيئا ما بين الحب والخوف؛ والذي ندعوه بالاحترام. من المحتمل كذلك أن يتبع الجيل الثاني مثال الجيل الأول، وأن يتمكن رجل بقليل من الدهاء – طالما ظل حيا ومحتفظا بمداركه – من أن يحتفظ بسطوة أعلى على جميع ذريته ونسله، مهما زاد عددهم. لكن بمجرد موت الجذع القديم يتشاجر الأبناء، ولن يبقى السلام طويلا قبل أن تنشب الحرب. أما أسبقية العمر بين الإخوة فليست ذات قوة كبيرة، والتميز الذي مُنح لها تم اختراعه فقط كنقلة للعيش في سلام. إن الإنسان في حقيقته حيوان جبان، ليس مفترسا بالطبيعة، يحب السلام والهدوء، ولن يقاتل أبدا إذا لم يتعدَّ عليه أحد، وإذا استطاع الحصول على ما يقاتل من أجله دون قتال. لهذا المزاج الجبان والنفور الذي لديه تجاه فكرة أن يتم إزعاجه تدين كل المشاريع والأشكال المختلفة للحكومات. وبلا شك كانت المَلَكية هي الأولى. وكانت الأريستقراطية والديمقراطية وسيلتين مختلفتين لإصلاح مشاكل الأولى، وخليط من هؤلاء الثلاثة هو بمثابة تحسين للبقية كلها.

لكن سواء كنا برابرة أو سياسيين فمن المستحيل على الإنسان – الإنسان الخطَّاء البسيط – أن يسلك وفق أي هدف آخر غير إمتاع نفسه طالما لديه القدرة على استخدام أعضائه، وأقصى تطرف سواء للحب أو لليأس لا يمكن أن يكون لديه مركز آخر. لا يوجد هناك اختلاف بين الإرادة والمتعة بشكل ما، وكل حركة تتم على الرغم منهما لابد أن تكون غير طبيعية ومتشنجة. وبما أن الأفعال محدودة للغاية، ونحن دائما مجبرون على فعل ما نرغب فيه، وفي نفس الوقت فإن أفكارنا حرة وغير مُقيَّدة، فمن المستحيل أن نكون مخلوقات اجتماعية دون رياء. والدليل على ذلك واضح؛ فبما أننا لا يمكننا منع الأفكار التي تثور داخلنا بشكل

مستمر، فإن التجارة المدنية يمكن أن تُفقد بأكملها، إذا لم نتعلم بالحيلة وبالمداراة الحذرة أن نخفي هذه الأفكار ونكبتها، وإذا كان كل ما نفكر فيه سيوضع مكشوفا للآخرين بنفس الطريقة التي يوضع بها أمام أنفسنا؛ فمن المستحيل أن نبقى – نحن الموهوبين بالكلام – محتملين من بعضنا البعض. أنا مقتنع بأن كل قارئ يشعر بصدق ما أقول، وأقول لمعارضي أن ما في ضميره يلوح في وجهه بينما لسانه يستعد لتفنيد كلامي. في كل المجتمعات المتمدنة يتم تعليم البشر بشكل غير محسوس أن يكونوا منافقين منذ أن كانوا في المهد، ولا يجرؤ أحد على الاعتراف بأنه قادر على تجاوز الكوارث العامة، أو حتى فقدان الأشخاص المقربين. إن الشماس إذا سَكَر سيتمنى بكل صراحة وفاة أبناء الأبرشية، رغم أن الجميع يعرفون أنه ليس لديه شيء آخر يعيش عليه.

إنها متعة هائلة بالنسبة لي عندما أنظر في شؤون الحياة البشرية، لأرى كيف يُشكل الأمل في المكسب وأفكار الربح البشر إلى أشكال متنوعة وغالبا متعارضة على نحو غريب؛ وفقا للوظائف المختلفة التي يشغلونها والمراكز التي يكونون فيها. كيف يبدو كل وجه مرحا وسعيدا في حفل منظم بشكل جيد، وأي حزن مهيب نلاحظه في الحفل التنكري للجنازات ! لكن اللحاد يكون سعيدا بمكاسبه بنفس القدر الذي يكون عليه معلم الرقص؛ كلاهما مُتعَبان بنفس القدر في عملهما، وابتهاج أحدهما مُتكلَّف بنفس القدر الذي يكون به وقار الأخر مُتصنَّعا. وهؤلاء الذين لم يهتموا أبدا بالمحادثة ما بين تاجر أقمشة متأنق وزبونته السيدة الشابة التي تأتي إلى محله قد أهملوا مشهدا مسليا للغاية من الحياة. أعتذر من قارئي الجاد – لأنه سيتخفف قليلا لبعض الوقت من وقاره – ويتحملني كي أتفحص هذين الشخصين كل على حدة؛ وذلك فيما يتعلق بدواخلهما

والدوافع المختلفة التي يتصرفان من منطلقها.

عمله هو أن يبيع أكثر ما يمكنه من حرير بسعر يمكنه به أن يحصل على ما يعتقد أنه معقول، وفقا لأرباح التجارة المعتادة. وبالنسبة للسيدة ما تريده هو أن تشبع رغبتها وأن تشتري بسعر أرخص بجروت[10] أو بستة بنسات في الياردة عن السعر الذي تباع به الأشياء التي تريدها. من الانطباع الذي تركه عليها تودد جنسنا، هي تتخيل أنها (إذا لم تكن مشوهة للغاية) تمتلك سحنة جميلة وسلوكا سلسا، وحلاوة صوت مميزة، أنها مليحة، وإذا لم تكن جميلة فإنها على الأقل مقبولة أكثر من معظم النساء اللاتي تعرفهن.ولأنه ليس لديها طموح أن تشتري نفس الأشياء بنقود أقل من بقية الناس، باستثناء ما يستند إلى خصالها الطيبة، فإنها ستشحذ نفسها لتحقيق أفضل فائدة يمكن لذكائها وحسن تصرفها أن يجعلاها تحققها. أفكار الحب هنا ليست في محلها، لذلك هي من ناحية ليس لديها مجال للعب دور المستبدة، وإحاطة نفسها بأجواء من الغضب والعناد، ومن الناحية الأخرى ليس لديها حرية أكبر للتحدث بلطف وأن تكون أكثر عذوبة مما هي عليه تقريبا في أي مناسبة أخرى. هي تعرف أن عددا كبيرا من الأشخاص المهذبين يأتون إلى محله، وتسعى كي تجعل نفسها لطيفة بقدر ما تسمح به الفضيلة وقواعد الاحتشام. وحيث أنها قادمة بذلك التصميم من السلوك فإنها لا يمكن أن تلتقي بأي شيء يكدر مزاجها.

قبل أن تتوقف عربتها تماما يقترب منها رجل مهذب كما يكون الرجل؛

10- جروت Groat عملة إنجليزية فضية كانت تساوي ما قيمته أربعة بنسات قديمة وتم إصدارها ما بين عامي 1351 و 1662

كل شيء فيه نظيف وأنيق، ويحييها بانحناءة توقير وإكبار، وبمجرد أن تتضح رغبتها في الدخول يمد لها يده ليوصلها إلى داخل المحل، حيث يفترق عنها على الفور، وعبر طريق جانبي يظل مرئيا لنصف لحظة يموضع نفسه ببراعة كبيرة خلف الطاولة، وها هو يواجهها باحترام عميق وبعبارة عصرية يسألها أن تتعطف عليه وتخبره بطلباتها. فلتقل ما تحب وما لا تحب، لا يمكن أبدا معارضتها مباشرة؛ فهي تتعامل مع رجل صبره الكامل هو أحد أسرار مهنته، وأيا كانت المشكلة التي ستثيرها فهي واثقة من أنها لن تسمع شيئا غير أشد الكلام كرما، وسيكون أمامها دائما وجه مبتهج، تختلط فيه السعادة والاحترام مع الظرف، وكل هذا معا يصنع وقارا مصطنعا أكثر جاذبية مما تستطيع الطبيعة غير المدربة أن تخلقه.

عندما يلتقي شخصان بهذا الشكل الطيب، فلابد أن تكون المحادثة بينهما عذبة للغاية، وشديدة التهذيب كذلك، رغم أنهما يتكلمان عن تفاهات. وفي الوقت الذي تظل هي فيه مترددة بشأن ما تأخذه يبدو هو في نفس الحال بشأن نصحها، إنه حذر للغاية فيما يتعلق بالكيفية التي يوجه بها اختيارها؛ لكن بمجرد أن تقوم بالاختيار ويقر عزمها يصبح هو على الفور إيجابيا مؤكدا أن اختيارها هو الأفضل من نوعه، ويفرط في إطراء ذوقها، وكلما نظر إليه أكثر كلما ازداد تعجبه من عدم اكتشافه من قبل لتميزه عن أي شيء يملكه في محله. لقد تعلم بشكل غير ملحوظ عن طريق القاعدة والمثال والتطبيق الهائل أن ينزلق داخل أعمق خبايا الروح، ويسبر مقدار طاقة زبائنه، ويكتشف الجانب الخفي المجهول لديهم. بكل هذا كان قد تعلم خمسين حيلة أخرى لجعلها تبالغ في تقدير حكمها وكذلك السلعة التي ستشتريها. نقطة تفوقه الأكبر عليها تكمن في الجزء الأكثر مادية من التجارة بينهما؛ الجدال حول السعر، الذي يعرفه هو

بالمليم فيما هي جاهلة تماما به. لذلك لا يوجد مجال له كي يخدع فهمها بشكل أكثر فضائحية، ورغم أن لديه الحرية هنا كي يخبرها بأي أكاذيب يودها فيما يتعلق بسعر التكلفة والنقود التي رفضها، لكنه لا يعتمد فقط على تلك الأكاذيب؛ بل إنه بالهجوم على غرورها يجعلها تصدق أكثر الأشياء استحالة في العالم، بخصوص ضعفه هو وقدراتها الأعلى؛ بأنه قد اتخذ قرارا – كما يقول – بألا يتخلى أبدا عن تلك القطعة مقابل مثل هذا السعر، لكنها تمتلك القدرة على إقناعه بتغيير رأيه فيما يتعلق ببضائعه أكثر من أي شخص آخر باع له شيئا طوال حياته، يحتج بأنه يخسر في بيع حريره، لكن بما أنه يرى أن لديها ميل ناحيته وأنها مصممة على ألا تدفع أكثر من ذلك؛ فسيدعها تناله بدلا من أن يخيب آمال سيدة يحمل لها تقديرا غير عادي، فقط يناشدها ألا تتصلب معه بهذه الطريقة في المرة القادمة. وفي نفس الوقت فإن المشترية – التي تعرف أنها ليست حمقاء وأن لديها لسانا فصيحا – مقتنعة بسهولة أنها تملك طريقة ساحرة في الكلام، واعتقادا منها بأنه من أجل خاطر التربية الحسنة يكفي أن تنكر تفوقها وأن ترد المجاملة بشيء من حضور البديهة اللماح، وهكذا يجعلها تبتلع باقتناع تام فحوى كل شيء يخبرها به. النتيجة هي أنها مع إحساسها بالرضا لتوفيرها تسعة بنسات في الياردة قد اشترت حريرها بنفس السعر الذي اشتراه به أي شخص آخر بالضبط، وغالبا دفعت ستة بنسات زيادة عما كان سيأخذه لو لم يبعه لها.

من المحتمل أن يخسر هذا البائع تلك السيدة لحاجتها لأن تحصل على إطراء كاف، أو لخطأ يسعدها أن تجده في سلوكه، أو ربما بسبب ربطة عنقه أو أي شيء آخر مكروه تراه جوهريا، وتمنح تعاملاتها إلى شخص آخر من أبناء الطائفة. لكن حيث أن الكثير منهم يعيشون في جماعة؛

فليس من السهل دائما تحديد أي محل تذهب إليه، كما أن الأسباب التي يملكها بعض من الجنس اللطيف لتبرير اختياراتهن غالبا ما تكون غريبة الأطوار ويتم الاحتفاظ بها كما لو كانت سرا كبيرا. إننا لا نتبع أهواءنا أبدا بشكل أكثر حرية مما نفعله حيثما لا يمكن اقتفاء أثرها، ويكون من غير المعقول للآخرين أن يشكوا فيها. لقد فضَّلت سيدة فاضلة محلا على بقية الآخرين جميعهم لأنها رأت فيه شخصا وسيما، ومحلا آخر ليس به شائبة لأنها تلقت ترحابا وملاطفة أكبر أمامه مما مُنح لها في أي مكان آخر عندما كانت ذاهبة إلى (كنيسة القديس بول) ولم يكن في ذهنها أي أفكار حول الشراء؛ لأنه بين تجار الأقمشة المعاصرين لابد أن يظل التاجر المقبول واقفا أمام بابه، وأن يجذب الزبائن عشوائيا ولا يستغل أي طلاقة أو إلحاح غير مظهر المجاملة المفرطة، مع وقفة مذعنة، وربما انحناءة لكل أنثى متأنقة تلقي نظرة نحو محله.

ما قلته أخيرا يجعلني أفكر في طريقة أخرى لدعوة الزبائن، أبعد ما تكون في هذا العالم عما كنت أتكلم عنه، أقصد تلك التي يمارسها (المراكبية) وبشكل خاص على هؤلاء الذين يعرفون من ملامحهم وملابسهم أنهم فلاحون. ليس من المزعج أن ترى نصف دستة من الأشخاص يحيطون برجل لم يروه في حياتهم من قبل، واثنان منهم – هما اللذان بإمكانهما أن يكونا الأقرب – يقبض كل منهما بذراعه على رقبته، ويحتضنانه بطريقة محبة وحميمية كما لو كان أخاهما العائد حديثا من رحلة بحرية إلى شرق الهند، وثالث يمسكه من يده، وآخر يمسكه من كمه، ومن معطفه؛ من أزرار معطفه أو أي شيء يمكنه الوصول إليه، بينما شخص خامس أو سادس – والذي هرول حوله مرتين بالفعل دون أن يتمكن من الوصول إليه – يزرع نفسه أمام الرجل الممسوك مباشرة، وعلى مسافة

ثلاث بوصات من أنفه، معارضا منافسيه بصيحة من فم مفتوح، تُظهر له مجموعة مخيفة من الأسنان الكبيرة وبقايا صغيرة من خبز وجبن ممضوغين، منعها وصول الرجل الريفي من أن يتم ابتلاعها.

كل هذا لا يؤخذ على محمل الإساءة على الإطلاق، والفلاح يعتقد حقا أنهم يعاملونه بتقدير كبير، لذلك فإنه بعيدا عن مقاومتهم يتحمل بصبر على نفسه أن يُدفع أو يُجذب إلى أي طريق توجهه إليه القوة التي تحيط به. وهو لا يملك رهافة أن يجد غضاضة في نَفَس إنسان نفخ للتو دخان غليونه، أو في رأس مكلل بالشعر الدهني يحك في ضلوعه؛ فقد اعتاد على القذارة والعرق منذ كان في المهد، ولا يزعجه على الإطلاق أن يسمع عشرة رجال بعضهم واقف عند أذنه وأبعد شخص فيهم على مسافة لا تزيد عن خمسة أقدام منه ينادون عليه زاعقين كما لو كان على مبعدة مائة ياردة، فهو يدرك أنه لا يصدر ضوضاء أقل من هذه عندما يكون سعيدا هو نفسه، وهو سعيد في سره بعاداتهم الصاخبة. إنه يفسر عواءهم وجذبهم إياه بالطريقة المقصودة بهما؛ إنه تودد يمكنه الإحساس به وفهمه، إنه لا يسعه إلا أن يتمنى لهم كل خير على التقدير الذي يبدو أنهم يحملونه له، هو يعشق أن ينتبه إليه أحد، وهو معجب بأهل لندن لكونهم مُلحين في عرض خدماتهم عليه مقابل ثلاثة بنسات أو أقل، بينما في الريف وفي المحل الذي يتردد عليه لا يمكنه الحصول على شيء، لكن عليه أولا أن يخبرهم بما يريده، وبالرغم من أنه ينفق ثلاثة أو أربعة شلنات في كل مرة؛ إلا أنه نادرا ما ينطق أحدهم بكلمة معه إلا ردا على سؤال يجد نفسه مضطرا لطرحه أولاً. هذا النشاط الموجه لصالحه يحرك شعوره بالامتنان، ولأنه غير راغب في أن يخيب أمل أي منهم؛ فهو لا يعرف صدقا مَن يختار. لقد رأيت رجلا يفكر في كل هذا، أو في شيء من هذا القبيل،

بنفس الوضوح الذي استطعت به رؤية أنفه، وهو في نفس الوقت يمضي قدما تحت حمولة من (المراكبية) وبوجه مبتسم يحمل سبعة أو ثمانية (ستون[11]) أكثر من وزنه شخصيا متجها إلى ضفة النهر.

إذا كان المرح القليل الذي أظهرته برسم هاتين الصورتين من الحياة الدنيا لا يناسبني فأنا أعتذرعنه، لكني أعد بألا أكون مذنبا بهذا الخطأ مرة أخرى أبدا، وسأكمل الآن دون إضاعة للوقت حجتي ببساطة بليدة مضجرة، وأثبت الخطأ الفادح لهؤلاء الذي يتخيلون أن الفضائل الاجتماعية والصفات الطيبة التي تستحق الثناء فينا مفيدة للجمهور بقدر ما هي مفيدة لأشخاص الأفراد الذين يمتلكونها، وأن وسائل الازدهار وأي شيء يفضي إلى الرفاهية والسعادة الحقيقية للعائلات لابد وأن يكون له نفس التأثير على المجتمع بأكمله. أعترف بأن هذا هو ما عملت من أجله طوال هذا الوقت، ولا أظنني غير موفق بإطراء نفسي في ذلك، لكني آمل ألا يعجب أي شخص بالمشكلة الأسوأ عندما يرى صحتها تثبت بأكثر من طريقة.

من المؤكد أنه كلما كان لدى الإنسان رغبات أقل وكلما قل ما يشتهيه؛ كلما كان مريحا لنفسه أكثر. وكلما زاد نشاطه لتوفير احتياجاته، وقل ما يتطلب منه أن يسهر عليه؛ كلما كان محبوبا أكثر في عائلته وأقل إثارة للمشاكل. وكلما زاد حبه للسلام والوئام وكلما زاد برّهُ وإحسانه نحو جيرانه وكلما زاد تألقه بالفضيلة الحقيقية؛ فلا شك أنه سيكون مقبولا بالنسبة ذاتها لدى الرب والعبد. لكن دعونا نكن دقيقين، ما الفائدة التي يمكن أن تكون لهذه الأمور، أو ما هي المصلحة المادية التي يمكنها تحقيقها

11- ستون Stone وحدة وزن في بريطانيا تساوي 14 رطلا (6.4 كيلوجرامات)

لزيادة ثروة ومجد الأمم وعظمتها العالمية؟ إنه ذلك المنافق الحسيّ من رجال الحاشية الذي لا يضع حدا لإسرافه في الترف، والعاهرة المتلونة التي تبتكر طرقا جديدة كل أسبوع، والدوقة المتعجرفة التي تحاكي أميرة في الحشم والمتع وفي جميع سلوكها، والخليع المبذر والوارث المسرف اللذان يبعثران مالهما من حولهما دون فطنة أو تبصر ويشتريان كل شيء تقع عيونهما عليه ليدمراه أو ليبدداه في اليوم التالي، الوغد الطامع والحانث باليمين الذي اقتنص ثروة كبيرة من بين دموع أرملة وأيتام، وترك المال للمسرفين كي ينفقوه؛ إن هؤلاء هم الفريسة والطعام المناسب لليفياثان[12] تام النمو، أو بكلمات أخرى تلك هي الحالة الفاجعة للمسائل الإنسانية التي نقف إزاءها في حاجة للأوبئة والوحوش التي ذكرتها للقيام بكل أشكال العمل التي يمكن لمهارات البشر أن تخترعها لكي تحصل على رزق شريف للحشود الهائلة من الفقراء العاملين المطلوبين لصنع مجتمع كبير، ومن الحماقة تخيل أن الأمم العظيمة والغنية يمكنها أن تبقى وأن تكون قوية ومهذبة معا بدونهم.

أنا أعترض على البابوية بنفس القدر الذي اعترض به (لوثر) و(كالفن) أو الملكة إليزابيث نفسها، لكني أؤمن من قلبي بأن حركة الإصلاح كانت بالكاد أكثر فعالية في جعل الممالك والدول التي اعتنقتها أكثر ازدهارا من بقية الأمم مقارنة بالاختراع السخيف والغريب للتنورات المطوَّقة والمبطَّنة. لكن إذا أنكر عليَّ ذلك أعداء السلطة الكهنوتية فأنا متأكد على الأقل من أن الحركة الإصلاحية منذ بدايتها الأولى وحتى يومنا هذا لم توظف أيدي عاملة كثيرة – ماعدا الرجال العظام الذين قاتلوا من أجل

12- الليفياثان وحش بحري أسطوري ورد ذكره في التوراة مطابقا أحيانا للحوت أو التمساح وفي أحيان أخرى للشيطان

نعمة الإنسان العلماني تلك وضدها – وأقصد أيدي عاملة مخلصة كادحة بقدر ما فعل ذلك التطور البغيض للكمالية الأنثوية التي ذكرتها في سنوات قلائل. الدين شيء والتجارة شيء آخر. فذلك الذي يسبب أكبر المشاكل لآلاف من جيرانه ويخترع أكثر المصنوعات إرهاقا هو – عن صواب أو عن خطأ – أكبر صديق للمجتمع.

يالها من ضجة تلك التي تحدث في بقاع عديدة من العالم قبل أن يمكن إنتاج قطعة من القماش الأحمر أو القرمزي، أيُّ كثرة من الحرف والصُنَّاع يجب توظيفهم ! ليس فقط هؤلاء الظاهرون مثل ممشطي الصوف والغزَّالين والنسَّاجين وعمال الأقمشة والمنظفين والصباغين والمُنظِّمين وعمال الجرّ والعتَّالين، لكن هناك آخرون أكثر بُعدا وقد يبدون دخلاء على الصناعة مثل بناة الطواحين وصانعي الأواني الصفيح والكيميائيين والذين هم جميعا ضروريون بقدر ما هم يمثلون عددا كبيرا من الحرف الأخرى المطلوبة للحصول على الأدوات والأواني والتجهيزات الأخرى الخاصة بالمهن التي تم ذكرها بالفعل، لكن كل هذه الأمور تتم في الوطن، وربما تُؤدَّى دون متاعب أو مخاطر زائدة، أما الجانب الأكثر إثارة للخوف فباقٍ لما وراء ذلك؛ عندما نتأمل في الكدّ والمخاطرة اللذين سيتم تكبدهما خارج البلاد : تلك البحار الواسعة التي سيتوجب علينا اجتيازها، والمناخات المختلفة التي سنتحملها، والأمم العديدة التي سيتوجب علينا أن نكون شاكرين لها على مساعداتها. من الصحيح أن إسبانيا وحدها قد تمدنا بالصوف اللازم لصنع أفضل الأقمشة، لكن أي مهارة وعناء، أي خبرة وبراعة تتطلبها صباغته بهذه الألوان الجميلة ! إلى أي نطاق واسع تمتد العقاقير والمكونات الأخرى المتناثرة عبر الكون التي ستلتقي في غلاَّية واحدة ! حجر الشبَّة نملكه نحن بالفعل في وطننا، والأرجول أو

رواسب البوتاسيوم يمكننا الحصول عليها من نهر الراين، وحامض الزاج الكبريتي من المجر، وكل هؤلاء في أوروبا، لكن لكي نحصل بعد ذلك على الملح الصخري بكميات فنحن مضطرون إلى الذهاب بعيدا حتى جزر الهند الشرقية. صبغة القرمز - غير المعروفة للقدماء - ليست أقرب إلينا، رغم أنها في جزء مختلف تماما من الأرض. من الصحيح أننا نشتريها من الإسبان لكن لكونها ليست منتجا خاصا بهم فإنهم يضطرون إلى جلبها لنا من أبعد ركن في العالم الجديد في جزر الهند الغربية. في الوقت الذي يُشوى فيه بحارة كثيرون في الشمس ويتصببون عرقا من حرارة الجو في الشرق والغرب من حولنا، هناك مجموعة أخرى منهم تتجمد في الشمال كي تجلب لنا البوتاس من روسيا.

عندما نتعرف تماما على كل أشكال الكدّ والعمل، والصعاب والمصائب التي لابد من اجتيازها لبلوغ الغاية التي أتكلم عنها، وعندما نضع في اعتبارنا المجازفات والمخاطر التي تجرى في هذه الرحلات البحرية، وأن القليل منها لا يتم إلا على حساب - ليس فقط صحة وسعادة وإنما حتى - حياة الكثيرين. أقول أننا عندما نتعرف على الأشياء التي ذكرتها ونوليها الاعتبار الواجب فمن الصعوبة بمكان أن نتصور طاغية ما بهذا القدر من اللاإنسانية والخلو من الإحساس بالخزي، حتى أنه برؤية الأمور بنفس وجهة النظر سيطلب مثل هذه الخدمات الرهيبة من عبيده الأبرياء، وفي نفس الوقت نجرؤ على الاعتراف بأنه لم يفعل ذلك لسبب آخر غير الرضا البشري الذي يحسه من الحصول على ثوب مصنوع من القماش الأحمر أو القرمزي. لكن إلى أي مستوى من الرفاهية يجب أن تصل أمة ما حيث يمكن ليس فقط لحاشية الملك وإنما كذلك لحراسه، بل وجنوده الخصوصيين أن يحصلوا على تلك الرغبات الماجنة !

لكننا لو عكسنا المشهد ونظرنا إلى كل هذه الجهود كأفعال اختيارية كثيرة للغاية، تخص مهنا ووظائف مختلفة يتربى البشر عليها من أجل الحصول على أرزاقهم، والتي يعمل فيها كل واحد من أجل نفسه، أيا كان حجم العمل الذي يبدو أنه يؤديه من أجل الآخرين، إذا وضعنا في اعتبارنا أنه حتى البحارة الذين يمرون بأشد الصعاب وبمجرد أن تنتهي رحلة بحرية أو حتى بعد تحطم السفينة فإنهم يتطلعون ويلتمسون عملا في سفينة أخرى، أقول أننا لو تأملنا ونظرنا في هذه الأمور بمنظور آخر فسنجد أن عمل الفقراء بعيد للغاية عن أن يكون حِملا أو فرضا عليهم، أن الحصول على عمل هو نعمة يُصلُّون من أجلها في مناجاتهم للسماء، وأن نواله بالنسبة لأغلبيتهم هو دليل الاهتمام الأكبر من كل هيئة تشريعية.

وبما أن الأطفال وحتى الرُضَّع هم أشبه بقرود تحاكي الآخرين، فإن جميع الشباب لديهم رغبة محمومة في أن يصبحوا رجالا ونساء، وغالبا ما يغدون سخفاء نتيجة جهودهم المتسرعة كي يظهروا على عكس ما يراهم عليه الجميع. وجميع المجتمعات الكبيرة ليست مدينة بالقليل لهذه الحماقة في البحث عن الأبدية أو على الأقل الاستمرارية الطويلة للأعمال بمجرد تأسيسها. أي عناء سيتجشمه الشباب، وأي عنف لن يمارسوه على أنفسهم ليحققوا مؤهلات غير هامة وغالبا جديرة باللوم، والتي لنقص الخبرة وصواب الحُكم يغبطون الآخرين عليها، هؤلاء الأكبر منهم في العمر ! هذا الولع بالتقليد يجعلهم يُعوِّدون أنفسهم تدريجيا على استخدام أشياء كانت مزعجة إن لم تكن غير محتملة لهم في البداية، حتى يصلوا إلى درجة ألا يعرفوا كيف يفارقونها، وغالبا ما يشعرون بالأسف لأنهم زوَّدوا بتهور ضروريات الحياة بلا أي ضرورة. أي ثروات تم الحصول عليها من الشاي والقهوة ! أي تعاملات يتم تحريكها، وأي أشكال متنوعة

من العمل يتم أداؤها في العالم من أجل بقاء آلاف العائلات التي تعتمد كلها على عادتين سخيفتين إن لم تكونا كريهتين : تَنشُّق السعوط وتدخين التبغ، وكلاهما من المؤكد أن ضررهما أكثر من نفعهما بالنسبة لأولئك المدمنين عليهما ! سأذهب إلى أبعد من ذلك وأثبت فائدة المصائب والخسائر الشخصية للجمهور العام، وحماقة أمنياتنا عندما نتظاهر بأننا الأكثر حكمة وجدية. لقد كان حريق لندن كارثة عظمى، لكن إذا قام النجارون والبناؤون والحدَّادون والجميع – ليس فقط هؤلاء العاملون في البناء بل كذلك هؤلاء الذين صنعوا وتعاملوا في نفس الصناعات والبضائع التي احترقت، والمهن الأخرى التي حصلوا عليها ثانية عندما كانوا في عمل كامل – أقول إذا قاموا بالتصويت ضد هؤلاء الذين فُقدوا في الحريق، فإن صيحات الابتهاج ستتعادل إن لم تزد عن أنَّات الشكوى. إن جزءا كبيرا من التجارة والعمل يتوقف على تعويض ما ضيعته ودمرته النيران والعواصف والمعارك البحرية والحصارات والحروب، وستظهر حقيقة كل ما قلته عن طبيعة المجتمع بوضوح فيما يلي.

ستكون مهمة صعبة أن نعدد جميع المزايا والفوائد المختلفة التي تعود على بلد ما نتيجة شحن السفن والملاحة، لكن لو وضعنا فقط في الاعتبار السفن نفسها وكل مركب كبير وصغير يتم استغلاله للنقل في الماء؛ من أقل زورق إلى بارجة حربية من الطراز الأول : الخشب والأيدي العاملة التي يتم توظيفها في بنائها، وفكِّر في الزفت والقطران والصنوبر والشحم، الصواري وأحواض البناء والأشرعة والحبال، تعدد أشغال الحدادين، الأسلاك والمجاديف وكل شيء آخر يتعلق بها. وسنجد أنه لكي نزود بلدا واحدا فقط كبلدنا بكل هذه الضروريات فإننا نصنع جزءا كبيرا من تجارة أوروبا، دون أن نتكلم عن الذخائر والمؤن التي تُستهلك فيها،

أو البحارة والملاحين والآخرين مع عائلاتهم التي يعيلونها.

لكن من ناحية أخرى إذا ألقينا نظرة على الأضرار المتشعبة والشرور المتعددة - الأخلاقية وكذلك الطبيعية - التي تحدث للأمم بسبب السفر بالبحر وتجارتها مع الغرباء؛ فسيكون المشهد مخيفا للغاية، وإذا كان بمقدورنا افتراض وجود جزيرة كبيرة آهلة بالسكان وليس لها أي معرفة بالسفن وشؤون البحر، لكن بها شعب حكيم ومحكوم بشكل جيد، وإذا حدث أن ملاكا ما أو روحهم الحارسة وضعت أمامهم مخططا أو مسودة يمكنهم أن يروا على جانب منها كل الثروات والمزايا الحقيقية التي يمكن اكتسابها عن طريق الملاحة في خلال ألف سنة، وعلى الجانب الآخر الثروة والحيوات التي سيفقدونها وكل الكوارث الأخرى التي سيتكبدونها بشكل حتمي بسببها خلال نفس الزمن؛ فأنا واثق من أنهم سينظرون إلى السفن برعب ومقت، وأن حكامهم العقلاء سيُحرِّمون بشدة صنع واختراع كل المنشآت أو الماكينات التي يمكن الذهاب إلى البحر بها، أيا كان شكلها أو فئتها، وسيحظرون كل هذه الاختراعات اللعينة ويضعون عليها جزاءات كبيرة، إن لم تصل إلى حد الموت.

لكن لندع جانبا العواقب الضرورية للتجارة الخارجية؛ فساد الأخلاق وكذلك الأوبئة والجدري والأمراض الأخرى التي تأتي إلينا عن طريق شحن السفن، ألا ينبغي فقط أن نلقي نظرة على ما يُعزى إما إلى الرياح والطقس، وغدر البحر، وثلوج الشمال، وهوام الجنوب، وظلام الليل، واعتلال المناخات؛ أو ما تسببه الحاجة إلى مؤن جيدة وأخطاء البحارة، وعدم مهارة بعضهم، وإهمال وسُكْر بعضهم الآخر؛ وإذا وضعنا في الاعتبار خسارة الرجال والثروات التي تبتلعها الأعماق، ودموع واحتياجات

أرامل ويتامى البحر، الخراب الذي يلحق بالتجار ونتائجه، القلق المتواصل الذي يشعر به الآباء والزوجات على سلامة أطفالهم وأزواجهم، ولا ننسى الآلام الكثيرة وأوجاع القلب التي يشعر بها المُلاَّك وشركات التأمين في كل أنحاء البلد التجاري عند كل هبة رياح، أقول ألا نلقي نظرة على هذه الأشياء، ونتأملها بالاهتمام الواجب ونعطيها الثقل الذي تستحقه، ألن يكن من المدهش كيف أن أمة من الناس العاقلين يتكلمون عن سفنهم وملاحتهم كنعمة خاصة بهم، ويجدون سعادة غير عادية في امتلاك عدد لا نهائي من المراكب المتناثرة في كل أنحاء العالم الواسع، ودائما هناك البعض ذاهبون وآخرون قادمون من كل جزء في الكون؟

لكن دعونا لمرة في تأملنا لهذه الأشياء نحصر أنفسنا فيما تتكبده السفن فقط، المراكب نفسها بتجهيزاتها وتوابعها، دون أن نفكر في الشحنة التي تحملها، أو الأيدي العاملة التي تشغلها، وسنجد أن الخسارة المُتَكَبَّدة بهذا الشكل فقط كبيرة جدا، ويجب أن تتصاعد سنة بعد أخرى إلى مبالغ هائلة. السفن التي تغرق في البحر، وتنفلق في اصطدامها بالصخور وتبتلعها الرمال، بعضها نتيجة لحدة العواصف كلية، وأخرى نتيجة لذلك مع افتقار القباطنة للخبرة ومعرفة السواحل، الصواري التي تُقتلَع أو يضطرون إلى قطعها ورميها على متن السفينة، أحواض البناء، الأشرعة والحبال من مختلف الأحجام التي تدمرها العواصف، والمراسي التي تضيع، أضف إلى ذلك الإصلاحات الضرورية لمواضع التسريب التي تظهر فجأة والأضرار الأخرى التي يسببها غضب الرياح وعنف الأمواج. سفن كثيرة تحترق بسبب الإهمال، وتأثيرات المشروبات الكحولية القوية التي لا يوجد من يدمنها أكثر من البحارة، أحيانا المناخات غير الصحية وأحيانا أخرى سوء المؤن ينتج عنها أمراض قاتلة تهلك الجزء الأكبر من

الطاقم، وهناك سفن ليست بالقليلة تُفقد نتيجة الاحتياج للأيدي العاملة.

هذه كلها كوارث غير منفصلة عن الملاحة، وتبدو كعوائق هائلة تثقل مسيرة عجلات التجارة الخارجية. ترى كم سيظن التاجر نفسه سعيدا إذا تمتعت سفنه دائما بطقس طيب وبالرياح التي يتمناها، وكل بحَّار يوظفه – من أعلاهم إلى أدناهم – يكون بحَّارا عارفا ذا خبرة، ورجلا حريصا رصينا صالحا ! لو كانت هذه السعادة تأتي بالصلوات والدعاء، فأي مالك سفن أو تاجر في أوروبا – بل في العالم بأكمله – لن يقضي اليوم بطوله يلح على السماء كي يحصل على تلك النعمة لنفسه دون مراعاة لأي ضرر قد تتسبب فيه للآخرين؟ هذا الالتماس سيكون بالتأكيد التماسا منعدم الضمير للغاية، لكن أين هو الإنسان الذي لا يتصور أن له الحق في القيام به؟ ولذلك – بما أن كل امرء يطالب بحق مكافئ من هذه النعم – دعونا نفترض أن كل صلواتهم فعالة – دون التفكير في استحالة أن تكون صحيحة – وأن أمنياتهم أجيبت، وبعد ذلك دعونا نفحص نتائج مثل هذه السعادة.

ستبقى السفن إلى أقصى حد مثلها مثل المنازل المبنية بأخشاب البناء؛ لأنها ستُبنى بنفس القوة، لكن الأخيرة ستكون عرضة لمعاناة الرياح العالية والعواصف الأخرى، وهو الأمر الذي لن تتعرض له الأولى بناء على افتراضنا. هكذا وقبل أن يكون هناك أي داعٍ حقيقي لوجود سفن جديدة فإن أرباب البناء الموجودين الآن وكل من يعمل تحت إمرتهم سيموتون جميعا ميتة طبيعية، إذا لم يهلكوا من الجوع أو يلقوا نهاية ما قبل الأوان؛ لأنه في المقام الأول وبما أن جميع السفن ستحظى برياح مواتية ولن تنتظر أبدا هبوبها، فإنها ستقوم برحلات سريعة جدا سواء كانت ذهابا

أم عودة، ثانيا لن تكون هناك بضائع يدمرها البحر، أو تُلقى إلى المياه بسبب وطأة الطقس، لكن الحمولة بأكملها ستصل دائما إلى البر سالمة؛ وسيستتبع ذلك أن ثلاثة أرباع التجار الموجودين بالفعل سيكونون زائدين عن الحاجة في الوقت الحاضر، وسيبقى مخزون السفن الموجودة في العالم الآن في الخدمة لسنين كثيرة جدا. وستدوم الصواري والأحواض قدر ما تدوم المراكب نفسها، ولن نكون بحاجة لإزعاج النرويج في هذا المجال لفترة طويلة قادمة. الأشرعة والحبال التي ما زالت تستخدمها بضعة سفن ستبلى، لكن ليس في ربع السرعة التي تبلى بها الآن؛ لأنها غالبا ما تقاسي في ساعة عاصفة أكثر مما تلاقيه في عشرة أيام من الطقس الجيد.

نادرا ما سيكون هناك داعٍ للمراسي والحبال الغليظة، وسيدوم واحد منها طوال زمن السفينة إلى حد يفوق العقل. هذه الأداة وحدها ستهب أجازات مملة كثيرة لحدَّادي المراسي وساحات صنع الحبال. هذا النقص العام في الاستهلاك سيكون له تأثير على تجار الخشب، وكل هذا سيعني الحديد وقماش الأشرعة وخيوط القنب والزفت والقار ... إلخ حتى أن أربعة أخماس ما قلت في بداية هذا التأمل في شؤون البحر أنه يُكوِّن رافدا هاما من التجارة في أوروبا سيتم فقدها تماما.

أنا لم أفعل شيئا حتى الآن غير أني تلمست فقط نتائج هذه النعمة فيما يتعلق بمهنة شحن السفن، لكنها ستكون ضارة بكل فروع التجارة الأخرى كذلك، ومدمرة للفقراء في كل بلد تُصدِّر أي شيء يزرعه أو يصنعه هؤلاء الفقراء. إن السلع والبضائع التي تذهب كل عام إلى أعماق البحر، والتي تفسد في البحر بسبب الماء المالح، أو بسبب الحرارة، أو

بسبب الهوام والحشرات، أو تدمرها الحرائق، أو تضيع على التجار بسبب حوادث أخرى تعود جميعها للعواصف أو الرحلات البحرية المتعبة، أو لإهمال وطمع البحَّارة. أقول إن هذه البضائع والسلع هي جزء كبير مما يتم إرساله للخارج كل عام في العالم كله، ولابد أنها وظَّفت حشودا هائلة من الفقراءء قبل أن توضع على متن السفن. إن مائة بالة من القماش تُحرق أو تغرق في البحر المتوسط مفيدة للفقراء في إنجلترا بنفس القدر الذي كان يمكن أن تكون عليه إذا وصلت بسلام إلى سميرنا[13] أو حَلَب، وبيعت كل ياردة منه بالتجزئة في ممتلكات السيد الكبير[14].

ربما يفلس التاجر وبجواره بائع الثياب والصباغ والعتَّال وتجار آخرون، ربما يعاني أواسط الناس؛ لكن الفقراء الذين كانوا يعملون في دوائرهم لا يمكن أن يخسروا أبدا. فعادة ما يتلقى عمال اليومية أجورهم أسبوعيا، وجميع الأشخاص العاملين الذين تم توظيفهم إما في أيٍ من الفروع المختلفة للصناعة نفسها، أو في الناقلات البرية والمائية العديدة التي تتطلبها حتى تصل إلى شكلها الأمثل - بداية من ظهور الخراف وحتى المركب الذي توضع فيه - حصلوا على أجورهم، على الأقل أغلبيتهم، قبل أن يصل الطرد المشحونة فيه إلى متن السفينة. إذا توصل أي أحد من قرائي إلى استنتاجات لا نهاية لها من تأكيداتي بأن البضائع الغارقة أو المحترقة مفيدة للفقراء بنفس القدر الذي من الممكن أن تكونه لو بيعت جيدا ووُضعت في استخداماتها الصحيحة، فسأعتبره مسفسطا ولا يستحق الرد عليه، فلو أن السماء ظلت تمطر دائما ولم تشرق الشمس أبدا ستتعفن ثمار الأرض فورا وتتلف، بيد أنه ليس من التناقض أن نؤكد

13- مدينة إغريقية قديمة على البحر الأبيض المتوسط في الساحل الغربي للأناضول

14- تشير غالبا إلى الأراضي الخاضعة للسلطان العثماني

أنه لكي تحصل على عشب أو قمح فإن المطر ضروري مثله مثل ضوء الشمس.

يمكن بسهولة مما قيل بالفعل استنتاج بأي طريقة ستؤثر نعمة الريح الطيبة والطقس الجيد تلك على الملاحين أنفسهم وجنس البحَّارة. حيث ستكون هناك بالكاد سفينة واحدة مستخدمة من كل أربعة، والمراكب نفسها ستكون في منجاة من العواصف، فسيكون الطلب على أيدٍ عاملة أقل لتشغيلها، وبالتالي قد نوفر خمسة من كل ستة مما لدينا من البحارة، والذين لن يكونوا سوى أداة غير مطلوبة في هذه البلاد بعد أن تُتخَم أغلب أشغال الفقراء. بمجرد أن ينقرض هؤلاء البحارة الزائدون، سيكون من المستحيل على الإنسان أن يجد أساطيل كبيرة كتلك التي يمكن أن نجدها في وقتنا الحاضر؛ لكني لا أنظر إلى هذا كضرر، أو على أنه يمثل أدنى إزعاج؛ لأن تخفيض عدد البحارة إذا عمَّ في جميع أنحاء العالم فكل ما سينتج عنه أنه في حالة الحرب ستضطر القوات البحرية للقتال بسفن أقل؛ الأمر الذي سيكون مصدر سعادة بدلا من أن يكون مصدر شر، وإذا حملتَ هذه البشرى إلى أعلى درجات الكمال فإنها لن تضيف إلا نعمة أخرى مرغوبة ولن تحارب أي أمة مرة أخرى على الإطلاق. النعمة التي أشير إليها هي ما يجب على كل المسيحيين الصالحين أن يصلوا من أجله؛ أي أن يكون جميع الأمراء والحكومات موفين لعهودهم ووعودهم، وعادلين تجاه بعضهم البعض وكذلك تجاه رعاياهم، أن يكون لديهم اهتمام بما يمليه الضمير والدين أكبر من اهتمامهم بمقتضيات السياسة والحكمة الدنيوية، وأن يفضلوا السعادة الروحية للآخرين عن رغباتهم الجسدية نفسها، أن يفضلوا الشرف والسلامة والسلام وأمن البلاد التي يحكمونها عن حبهم الشخصي للمجد وروح الانتقام والجشع والطموح.

ستبدو الفقرة الأخيرة للكثيرين انحرافا عن الموضوع لا يساعد كثيرا في الوصول إلى غايتي، لكن ما أقصده بها هو أن أثبت أن الصلاح والاستقامة والطبيعة المسالمة في رؤساء وحكام الأمم ليست هي المؤهلات الصحيحة لتوسيعها وزيادة أعدادها، ليس أكثر من سلسلة متواصلة من النجاحات التي سيحظى بها كل امرء بشكل شخصي إذا استطاع، والتي أوضحت أنها قد تكون مؤذية ومدمرة للمجتمع الكبير، الذي يضع السعادة في العظمة الدنيوية، وفي أن يكون محسودا من جيرانه، ويُقيِّم نفسه بناء على فخره وقوته.

لا يحتاج أي إنسان إلى أن يحرس نفسه من النعم، لكن المصائب تتطلب أيادي لتجنبها. إن خصال الإنسان اللطيفة لا تسبب إثارة لأي فرد من نوعه؛ فصدقه، وحبه للصحبة، وصلاحه، وقناعته وزهده هي أسباب راحة عديدة لمجتمع كسول، وكلما كانت أكثر حقيقية وثباتا؛ كلما حافظت أكثر على كل شيء في راحة وسلام، وكلما منعت المشاكل والحركة نفسها في كل مكان. يمكن قول نفس الشيء تقريبا عن عطايا وكرم السماء، وجميع خيرات وفوائد الطبيعة. فمن المؤكد أنه كلما زادت واتسعت وكلما زادت الكمية التي ننالها منها؛ كلما زاد توفيرنا لجهدنا. لكن حاجات ورذائل ونواقص الإنسان سويا مع المشاكل العديدة للهواء والعناصر الأخرى تحوي في داخلها بذور جميع الفنون والصناعات والعمل. إنها تطرفات الحرارة والبرودة، تقلبات وسوء الفصول، عنف الرياح وترددها، القوة الهائلة للماء وغدره، غضب النار وعنادها، صلابة الأرض وجدبها .. هي ما تشد قدرتنا على الابتكار؛ كيف سنتمكن إما من تجنب الشرور التي قد تنتج عنها أو تصحيح أضرارها وتحويل قواها العديدة إلى صالحنا بألف طريقة مختلفة، في الوقت الذي نعمل فيه على توفير التشكيلة اللانهائية من حاجاتنا، والتي ستتضاعف

دائما مع اتساع معرفتنا وزيادة رغباتنا. إن الجوع والعطش والعُري هم الطغاة الأوائل الذين يدفعوننا إلى الحركة، وبعد ذلك فإن غرورنا وتراخينا وشهوانيتنا وتقلبنا هم الرعاة الكبار الذين يطورون جميع الفنون والعلوم والمهن والحرف والأشغال، بينما مراقبو العمل الكبار : الحاجة والجشع والحسد والطموح – كل في الطبقة التي تنتمي إليه – يُبقون أعضاء المجتمع في عملهم ويجعلونهم جميعا خاضعين – أغلبهم عن طيب خاطر – للكدح المرتبط بمواقعهم في العمل، ولا أستثني الملوك والأمراء.

كلما تعاظم تنوع المعاملات التجارية والصناعات، كلما ازداد إرهاقها، وكلما تزايد انقسامها إلى فروع كثيرة، كلما ازدادت الأعداد التي يمكن أن يضمها المجتمع دون أن يقابل أحدهم الآخر في الطريق، وكلما زادت إمكانية تحويلهم بسهولة إلى شعب غني قوي مزدهر. قلَّما تُوِّظف الفضائل أي أيد عاملة، ولذلك من الممكن أن تحول الفضائل أمة صغيرة إلى أمة طيبة، لكنها لا يمكنها أبدا أن تصنع أمة عظيمة. لكي تكون قويا ومُجدًّا، صبورا في الشدائد، ومجتهدا في كل الأعمال، فهذه صفات جديرة بالثناء؛ لكن طالما هي تقوم بعملها، فإن مكافأتها ستكون هي نفسها، ولم يقم أبدا فن ولا صناعة بمجاملتها. بينما تجلى تفوق التفكير والابتكار البشري ولم يكن أكثر وضوحا في أي مكان منه في تنوع أدوات وآلات العمال والصُنَّاع، وتعدد المحركات التي اختُرعت جميعها إما لمساعدة ضعف الإنسان، أو لتصحيح نواقصه العديدة، أو لإشباع كسله، أو لتفادي قلة صبره.

الأمر في الأخلاقيات هو نفسه في الطبيعة؛ فلا يوجد شيء صالح تماما في المخلوقات لدرجة أنه لا يمكن أن يكون مؤذيا لأي أحد في المجتمع،

ولا يوجد أي شيء شرير كليةً؛ بل لعله يكون مفيدا لجانب أو آخر من العالم، إذن فالأشياء تكون طيبة أو شريرة فقط بالنسبة لشيء آخر، ووفقا للضوء والموقع الذي توضع فيه. ما يسعدنا هو الطيب في هذا الصدد، ووفقا لهذه القاعدة يتمنى كل إنسان الخير لنفسه بأقصى ما يستطيع، دون مراعاة كبيرة لجاره. لم يكن هناك أي مطر بعد – رغم أنه كان موسما جافا للغاية عندما أقيمت صلوات عامة لاستنزال المطر – لكن شخصا ما أو آخر كان يريد أن يسافر للخارج تمنى أن يكون الجو طيبا لهذا اليوم فقط. وعندما يشب القمح كثيفا في الربيع وتطرب أغلبية الريف بهذا الشيء المبهج، فإن الفلاح الثري الذي احتفظ بمحصوله عن العام الماضي من أجل سوق أفضل يأسى لهذا المنظر، ويأسف في داخله لمرأى الحصاد الوفير. لا بل إننا غالبا ما نسمع أناسا متبطلين يتمنون بصراحة الحصول على ممتلكات الآخرين، وحتى لا يكونوا مؤذين عن حق يضيفون هذا التحفظ الحكيم : أن يكون ذلك دون ضرر للمالكين. لكني أخشى أنهم غالبا ما يفعلون ذلك دون أي تقيد مثل هذا في قلوبهم.

إنه لما يبعث على السرور أن دعوات وأمنيات أغلب الناس لا أهمية ولا نفع لها، وإلا كان الشيء الوحيد الذي يمكن أن يُبقي النوع البشري صالحا للمجتمع ويحفظ العالم من الوقوع في الفوضى هو الاستحالة التي ينبغي أن تُمنح لجميع الالتماسات المُقدَّمة للسماء. شاب مهذب ملتزم بواجباته قادم حديثا من أسفاره يمكث في ميناء (بريل[15]) منتظرا بنفاد صبر ريحا شرقية لتحمله إلى انجلترا، حيث يرقد أب محتضر – يريد أن يحتضنه ويمنحه مباركته قبل أن يسلم أنفاسه – وهو ينوح

15- مدينة وميناء تاريخي في غربي هولندا

عليه، ذائبا من الأسى والحنان. في تلك الأثناء هناك وزير بريطاني مكلف بالاهتمام بالشأن البروتستانتي في ألمانيا يركب عربة البريد منطلقا إلى (هاريتش[16]) وهو في عجلة كبيرة كي يكون في (راتيزبون[17]) قبل أن ينفض (الدايت[18]). في نفس الوقت يربض أسطول فخم متأهبا للخروج إلى البحر المتوسط، وسرية منه متوجهة إلى البلطيق. كل هذه الأشياء من الممكن أن تحدث في نفس الوقت، على الأقل ليس من الصعب افتراض حدوث ذلك. إذا لم يكن هؤلاء الناس ملحدين أو فاسقين عتاة؛ فسيستدعون جميعا بعض الأفكار الطيبة قبل ذهابهم للنوم، وبالتالي لابد أنهم جميعا قرب ساعة النوم سيصلون كل بطريقته من أجل ريح طيبة ورحلة ناجحة. لا أقول إلا أن هذا هو واجبهم، لكني واثق من أنه لا يمكن أن تجاب طلباتهم جميعا في نفس الوقت.

بعد ذلك فإني أُثني على نفسي لكوني قد أثبتُّ أنه لا الخصال اللطيفة والعواطف الطيبة الطبيعية للإنسان، ولا الفضائل الحقيقية القادر على اكتسابها بالعقل وإنكار الذات، هي أساس المجتمع؛ لكن ما نسميه بالشر في هذا العالم – أخلاقيا وطبيعيا كذلك – هو المبدأ الكبير الذي يجعلنا مخلوقات اجتماعية، هو الأساس الصلب، الحياة والعون لكل المهن والأشغال دون استثناء؛ حتى أنه يتوجب علينا أن نبحث فيه عن الأصل الحقيقي لكل الفنون والعلوم، وأنه في اللحظة التي يتوقف فيها الشر لابد أن يفسد المجتمع، إن لم يتحلل كلية.

16- مدينة وميناء في إيسيكس بانجلترا

17- الاسم الإنجليزي القديم لمدينة ريغنسبورغ الألمانية بولاية بافاريا

18- برلمان ألماني يمثل الولايات الألمانية الفيدرالية

بإمكاني أن أضيف ألف شيء لأدعم وأوضح بشكل أكبر هذه الحقيقة مع قدر وافر من المتعة؛ لكن خوفا من أن أكون مزعجا سأصل إلى نقطة نهاية، رغم أني أعترف بأني لم أكن نصف مهتم بالحصول على استحسان الآخرين؛ لأني بحثت ودرست لأمتع نفسي بهذه التسلية، بيد أنه إذا حدث وسمعت أني قد منحت أي متعة للقارئ الذكي بتتبعه لهذه التسلية، فسيضيف ذلك دائما إلى الشعور بالرضا الذي انتابني خلال سير العمل. أغادر هذا القارئ آسفا على أمل أن تكون متعته مصدر فخر لي، وأختتم هذا بتكرار المفارقة الواضحة التي تشكل جوهر ما تقدَّم في صفحة العنوان : أن الرذائل الشخصية ومن خلال الإدارة الحاذقة لسياسي ماهر يمكن أن تتحول إلى منافع عامة.

النهاية

مقال عن
الخيرية والمدارس الخيرية

الخيرية هي تلك الفضيلة التي من خلالها يتم تحويل جزء من ذلك الحب الصادق الذي نحمله لأنفسنا نقيا وخالصا إلى الآخرين ، غير المرتبطين بنا عبر أواصر الصداقة أو القرابة، بل حتى الغرباء الخُلص الذين لا نحمل نحوهم أي التزام، ولا نأمل أو نتوقع أي شيء منهم. إذا خففنا بأي طريقة صرامة ذلك التعريف فلابد أن يُفقد جزء من الفضيلة. إن ما نفعله من أجل أصدقائنا وعشيرتنا نفعله جزئيا من أجل أنفسنا؛ عندما يتصرف رجل ما لمصلحة أولاد وبنات أخيه ويقول «إنهم أطفال أخي، أنا أفعل ذلك من منطلق البر والإحسان.» فهو يخدعك. لأنه لو كان قادرا، فسيكون هذا متوقعا منه، وهو يفعل ذلك جزئيا من أجل خاطره؛ فلو أنه كان يقدِّر احترام العالم، وكان حريصا على الشرف والسمعة؛ فسيكون ملزما بأن يوليهم اهتماما أكبر مما يوليه للغرباء، وإلا فلابد أنه يعاني من شيء في شخصيته.

تتصل ممارسة هذه الفضيلة إما بالاعتقاد أو بالفعل، وتتجلى فيما نعتقده عن الآخرين أو فيما نفعله من أجلهم. إذن لكي نكون خيِّرين

يتوجب علينا في المقام الأول أن نضفي أفضل التفسيرات على كل ما يفعله أو يقوله الآخرون، أفضل التفسيرات مما تحتمله تلك الأشياء. فلو أن رجلا يبني بيتا فاخرا – وهو لا يملك أمارة تواضع واحدة – ويؤثثه بترف، وينفق ثروة لا بأس بها في الطلاء واللوحات، فلا يجب علينا أن نظن أنه يفعل ذلك من منطلق الخيلاء الزائفة؛ بل لتشجيع الفنانين وتشغيل الأيدي العاملة ودفع الفقراء للعمل من أجل مصلحة بلاده. ولو أن رجلا ينام في الكنيسة – لذلك لا يصدر شخيرا – فيجب علينا أن نظن أنه يغلق عينيه ليزيد من انتباهه وتركيزه. السبب هو أننا بدورنا نرغب في أن تُحسب أقصى أطماعنا على أنها اقتصاد، وعلى أنها تدين؛ وهو ما نعرف أنه رياء. ثانيا : أن الفضيلة واضحة فينا، عندما نمنح وقتنا وجهدنا بلا مقابل، أو نوظف رصيدنا مع الآخرين لمصلحة هؤلاء الذين في حاجة إليه، ولكننا لا نستطيع أن نتوقع مثل هذه المساعدة من صحبتنا أو قرابتنا في الدم. يتأسس الفرع الأخير من الخيرية على بذل ما له قيمة لدينا نحن أنفسنا (بينما نحن أحياء) لمن ذكرتهم بالفعل؛ وأن نكون راضين عن أن نملك ونستمتع بالأقل أكثر مما نكون لو لم نخفف عن هؤلاء المحتاجين والذين سيكونون أهدافا لاختيارنا.

هذه الفضيلة كثيرا ما تزيفها عاطفة لدينا تُسمى بالشفقة أو الرحمة، والتي تنبني على التعاطف مع الآخرين ومواساتهم في مصائبهم وكوارثهم. يتأثر بتلك العاطفة كل الجنس البشري تقريبا، لكن بشكل عام فإن أكثر من يتأثرون بها هم أصحاب العقول الأضعف. تلك العاطفة تثور فينا عندما تترك معاناة وتعاسة المخلوقات الأخرى انطباعا قويا للغاية علينا لدرجة تجعلنا نشعر بالتوتر. تدخل هذه العاطفة إلينا إما

عبر العين أو الأذن أو كليهما معا، وكلما هاجم موضوع الشفقة تلك الحواس بشكل أقرب وأكثر قسوة؛ كلما زاد الاضطراب الذي يسببه فينا، غالبا إلى درجة أن يتسبب في ألم وقلق هائلين.

لو أن أي واحد منا حُبس في غرفة بالطابق الأرضي ملحق بها فناء يلعب فيه طفل لطيف صحته جيدة ونموه قياسي، في الثانية أو الثالثة من عمره، قريب منا للغاية حتى أنه يمكننا عبر قضبان النافذة أن نلمسه تقريبا بيد واحدة. وإذا حدث أنه بينما نحن نستمتع بتلك التسلية غير المؤذية، والهذر الناقص للصغير البريء، هجمت خنزيرة شرسة هائلة الحجم على الطفل فجعلته يصرخ وأرعبته لدرجة لا تطاق؛ فمن الطبيعي أن نفكر في أن هذا سيجعلنا متوترين، وأننا سنحاول أن نُبعد الخنزيرة بالصراخ وبإصدار كل الضوضاء المُهدِّدة التي يمكننا صنعها. لكن إذا حدث أن كانت تلك المخلوقة نصف ميتة من الجوع وأنها خرجت تتجول بحثا عن طعام لأن الجوع أصابها بالجنون، ورأينا تلك البهيمة المفترسة - رغم صرخاتنا وكل الإشارات المتوعدة التي تمكنا من التفكير فيها - تقبض بالفعل على الطفل العاجز وتدمره وتلتهمه. أن نراها تفتح فكيها المهلكين على اتساعهما وتقضم الحَمَل المسكين بتعجل جشع، أن ننظر إلى الوضع الأعزل للأطراف الرقيقة وهي تُسحق أولا ثم تتمزق إربا، أن نرى الخطم القذر ينبش في الأحشاء التي ما زالت حية ويمتص الدم الذي يتصاعد منه البخار، وبين الحين والآخر نسمع قرقعة العظام والحيوان القاسي ينخر بلذة وحشية فوق وليمته البشعة، أن نسمع ونرى كل هذا .. أي عذابات تتجاوز القدرة على التعبير سيمنحها ذلك للروح ! دعوني أرى الفضيلة الأكثر تألقا التي يجب أن يتباهى بها الأخلاقيون

واضحة جدا سواء للشخص الذي يمتلكها أو لهؤلاء الذين يرون أفعاله: دعوني أرى الشجاعة، أو حب المرء لوطنه واضحين جدا دون أي شائبة، صافيين ومتميزين، الأولى من الكبرياء والغضب، والثاني من حب المجد، وكل ظل للمصلحة الشخصية، لأن هذه الشفقة ستكون مصفاة ومتميزة عن كل العواطف الأخرى. لن تكون هناك حاجة لإثارة الفضيلة أو إنكار الذات في مثل هذا المشهد؛ وليس فقط الرجل ذو الإنسانية والأخلاق الحميدة والرحمة، بل كذلك قاطع الطريق أو لص المنازل أو القاتل يمكن أن يشعروا بالجزع أمام مثل هذا الموقف؛ كيفما كانت ظروف المرء فاجعة سينسى مصائبه لبرهة، وستنسحب أشد العواطف إزعاجا وتخلي الطريق للشفقة، ولا يوجد إنسان ذو قلب فظ أو مشغول لدرجة ألا يتألم لمثل هذا المنظر، مثلما لا توجد لغة لديها وصف يلائمه.

سيتعجب الكثيرون مما قلته عن الشفقة، أنها تدخل من العين أو الأذن، لكن ستُعرف حقيقة ذلك عندما نضع في اعتبارنا أنه كلما كان الموضوع أقرب كلما عانينا أكثر، وكلما زاد بُعده كلما قل انشغالنا به. إن رؤية أناس يتم إعدامهم على جرائم ارتكبوها - إذا كانت على مسافة كبيرة - لن تحركنا إلا قليلا، مقارنة بما ستفعله عندما نكون قريبين بما يكفي لرؤية حركة الروح في عيونهم، ومراقبة مخاوفهم وعذاباتهم، ونكون قادرين على قراءة وخزات الألم في كل ملمح من ملامح الوجه. عندما يكون الموضوع بعيدا إلى حد ما عن حواسنا، لا يمكن أبدا لحكاية الفواجع أو قراءتها أن تثير فينا العاطفة المدعوة بالشفقة. ربما نهتم للأخبار السيئة، خسارة ومصائب الأصدقاء وهؤلاء الذين نتبنى قضاياهم، لكن هذا ليس هو الشفقة، بل الحزن أو الأسف؛ هو نفسه ما نشعر به

لوفاة هؤلاء الذين نحبهم، أو دمار ما له قيمة لدينا.

عندما نسمع أن ثلاثة أو أربعة آلاف إنسانا – جميعهم غرباء عنا – قُتلوا بالسيف، أو ابتلعهم نهر عندما غرقت منطقتهم، فإننا نقول وربما نؤمن أننا نشفق عليهم. إنها الإنسانية التي تأمرنا بأن يكون لدينا رحمة تجاه معاناة الآخرين، والعقل الذي يخبرنا أنه سواء كان الشيء بعيدا أو يتم تحت بصرنا فإن عواطفنا فيما يتعلق به يجب أن تكون هي ذاتها، وأنه ينبغي أن نشعر بالخزي إذا اعترفنا بأننا لم نشعر بأي رثاء داخلنا عندما يتطلبه أي شيء. إنه إنسان قاسٍ، ليس لديه رحمة في قلبه : كل هذه الأشياء هي تأثيرات العقل والإنسانية، لكن الطبيعة لا تقدم أي مجاملات؛ فعندما لا يُهاجِم الموضوع، لا يشعر به الجسد. وعندما يتحدث الرجال عن إشفاقهم على الناس البعيدين عن العين، فإنه يجب تصديقهم بنفس الطريقة التي نصدقهم بها عندما يقولون أنهم خدمنا المتواضعون. أثناء القيام بواجبات الضيافة المعتادة في اللقاء الأول فإن هؤلاء الذين لا يرون بعضهم البعض كل يوم يكونون عادة "سعداء جدا" و"آسفين جدا" بالتبادل لخمس أو ست مرات كاملة في أقل من دقيقتين، ومع ذلك فإنهم عند الافتراق لا يحملون معهم مثقال ذرة زائدة من الحزن أو الفرح عما تقابلوا به. الأمر نفسه فيما يتعلق بالشفقة، وهو شيء من الاختيار ليس أكثر من خوف أو غضب. فهؤلاء الذين لديهم خيال قوي ومفعم بالحياة ويمكنهم القيام بتمثيلات للأشياء في أذهانهم كما لو كانت أمامهم بالفعل، ربما يدفعون أنفسهم إلى الشعور بشيء يشبه الشفقة؛ لكن هذا يحدث بالفن والحيلة، وغالبا بمساعدة القليل من الحماسة، وهو مجرد تقليد للشفقة. يشعر القلب بالقليل منها، وتكون

شفقة خافتة مثل تلك التي نعانيها عند تمثيل تراجيديا؛ حيث يترك حكمنا على الأمور جزءا من العقل غافلا ويسمح له أن يستمتع بحالة من التهتك الكسول لتقوده إلى الوقوع في خطأ - وهو الأمر الضروري لإثارة العاطفة - لا تكون ضرباته الخفيفة مزعجة لنا عندما تكون الروح في مزاج كسول بليد.

ولأننا كثيرا ما نخطئ ونخلط بأنفسنا وفي حالاتنا الشخصية بين الشفقة والخيرية، فإنها (الشفقة) تتخذ شكلها (الخيرية)، وتستعير اسمها ذاته. يأتي متسول ويسألك أن تبذل تلك الفضيلة لخاطر السيد المسيح، لكن خطته الكبيرة طوال هذا الوقت هي إثارة شفقتك. إنه يعرض على ناظريك الجانب الأسوأ من علله وعيوبه الجسدية، يمنحك بكلمات منتقاة خلاصة مصائبه حقيقية كانت أم مختلقة، وبينما يبدو أنه يدعو الله كي يفتح قلبك، فإنه يشتغل بالفعل على أذنيك؛ يهرع أكثرهم فجورا نحو الدين طلبا للمساعدة، ويعزز نشيد توسلاته بنغمة كئيبة وإيماءات ذات حزن مدروس. لكنه لا يثق بالعاطفة وحدها، فهو يداعب كبرياءك بالألقاب والتشريفات والتمييزات، ويخفف من بخلك بأن يكرر لك كثيرا صغر ما يلتمسه من عطية، وبوعود مشروطة بعوائد مستقبلية ذات فوائد مفرطة تتجاوز (قانون الربا) ولو أنها بعيدة عن متناوله. والأشخاص غير المعتادين على المدن الكبيرة عندما تتم مهاجمتهم هكذا من جميع الجهات يضطرون عادة إلى الاستسلام، ولا يستطيعون تجنب إعطاء شيء ما رغم أنهم يمكنهم تدبيره بالكاد هم أنفسهم. كم يروضنا حب الذات بغرابة ! إنه يسهر دائما دفاعا عنا، ولكنه - من أجل تخفيف عاطفة مهيمنة - يجبرنا على التصرف بعكس مصلحتنا : لأنه

عندما تستولي علينا الشفقة، وإذا استطعنا فقط أن نتخيل أننا نسهم في إغاثة ذلك الذي نشفق عليه، وأننا أداة لتخفيف أحزانه؛ فإن ذلك يريحنا، ولذلك غالبا ما يعطي البؤساء الصدقات في الوقت الذي يشعرون فيه حقيقة أنه من الأجدر بهم ألا يفعلوا.

عندما تكون القروح ظاهرة بشدة للعيان أو تبدو من ناحية أخرى مؤلمة بطريقة مفرطة، ويمكن للمتسول أن يتحمل كونها مكشوفة للهواء البارد، يكون هذا صادما لبعض الناس؛ يهتفون أنه من العار السماح بمثل هذه المناظر؛ والسبب الرئيسي هو أن هذه المناظر تلمس شفقتهم بطريقة مؤثرة، وفي نفس الوقت يكونون هم عازمين على ألا يعطوا شيئا إما لأنهم طماعون أو لأنهم يحسبون ذلك إنفاقا ضائعا؛ الأمر الذي يجعلهم أكثر توترا. يديرون وجوههم بعيدا، وحيثما تكون الصرخات مقبضة سيسد البعض آذانهم عن طيب خاطر إذا لم يخجلوا من ذلك. ما بوسعهم فعله هو أن يسرعوا من خطوهم وهم يضمرون في قلوبهم غضبا هائلا لأن المتسولين موجودون هكذا في الشوارع. لكن الأمر بالنسبة للشفقة هو نفسه بالنسبة للخوف؛ فكلما زاد إلمامنا بالموضوعات التي تثير أيا من هاتين العاطفتين، كلما قل إزعاجهما لنا، وهؤلاء الذين تكون تلك المشاهد والأساليب مألوفة لهم بحكم العادة، قلَّما يتأثرون بها. الشيء الوحيد الباقي للمتسول الدؤوب كي يهزم هذه القلوب الحصينة - إذا كان يستطيع أن يمشي بعكازات أو بدونها - هو أن يسير في أعقابهم، وأن يزعجهم ويلح عليهم بضوضاء غير منقطعة كي يحاول - إذا استطاع - أن يجعلهم يشترون راحة بالهم. وهكذا يدفع الآلاف النقود للمتسولين من نفس المنطلق الذي يدفعون به

لقاطعي الذرة في أرضهم؛ لكي يسيروا بسهولة. وهكذا تُمنح الكثير من أنصاف القروش لأوغاد وقحين ومُعذِّبين عن عمد؛ أولئك الذين كان المرء ليضربهم بالعصا عن قناعة أكبر بكثير لو أن الأمر يتم بطريقة مناسبة. ومع ذلك فإن كل هذا تسميه آداب هذه البلاد بالخيرية والإحسان.

نقيض الشفقة هو الحقد : وقد تحدثت عنه حيثما تعاملت مع الحسد. هؤلاء الذين يعرفون معنى أن يدرسوا ويفحصوا أنفسهم سيعترفون فورا أنه من الصعب للغاية تتبع جذر وأصل هذه العاطفة. إنها واحدة من تلك العواطف التي نشعر بأشد الخجل منها، ولذلك يتم إخضاع الجزء المؤذي منها وتقويمه بسهولة عن طريق التعليم الحكيم. عندما يتعثر أي شخص بالقرب منا، فمن الطبيعي أن نمد أيدينا حتى قبل أن نفكر لكي نمنع السقوط أو على الأقل نخففه؛ الأمر الذي يوضح أننا حال كوننا مطمئنين نميل أكثر إلى الشفقة بالآخرين. لكن رغم أن الحقد في حد ذاته ليس مخيفا إلى حد كبير؛ إلا أنه إذا اقترن بالكبرياء يغدو غالبا مؤذيا، ويصبح أشد ما يكون فظاعة عندما يثيره الغضب ويزيده. لا يوجد شيء أكثر استعدادا وفاعلية في إخماد الشعور بالشفقة من هذا المزيج الذي يُدعى بالقسوة : من هنا ربما نعرف أنه لكي نقوم بعمل جدير بالتقدير فليس كافيا فقط أن نقهر عاطفة ما، إلا إذا كان ذلك يتم بالمثل من مبدأ جدير بالثناء، وبالتالي كم كانت تلك الجملة ضرورية في تعريف الفضيلة؛ أن محاولاتنا انطلقت من طموح عقلاني كي نكون أخيارا.

إن الشفقة – كما قلت في مكان آخر – هي الأكثر لطفا من بين

عواطفنا، ولا توجد مناسبات كثيرة يتوجب علينا فيها أن نقهرها أو نقمعها. قد يكون الجرَّاح رحيما كما يشاء، لكن هذا لا يجعله يهمل أو يكف عن فعل ما يجب عليه أن يفعله. القضاة كذلك والمحلفون قد يتأثرون بالشفقة، إذا وضعوا في اعتبارهم أن القوانين العادية والعدالة نفسها لم يتم خرقها ولا تعاني جرَّاء هذه الشفقة. لا توجد شفقة مؤذية في هذا العالم أكثر من تلك التي يثيرها حنان الأبوين، والتي تمنعهم من ترويض أطفالهم كما يتطلب حبهم العقلاني لهم، وكما يتمنون هم أنفسهم. إن السلطة التي تملكها تلك العاطفة بالمثل على مشاعر النساء أكبر مما نتخيله عادة، فهن يرتكبن يوميا أخطاء تُنسَب جميعها إلى الشهوة، ولكنها إلى حد كبير تنبع من الشفقة.

ما ذكرته أخيرا – الشفقة – ليست هي العاطفة الوحيدة التي تقلد وتشابه الخيرية؛ فقد شيد الكبرياء والغرور مستشفيات أكثر من كل الفضائل مجتمعة. إن البشر شديدو التشبث بممتلكاتهم، والأنانية متأصلة للغاية في طبيعتنا، حتى أن أي امرء – كائنا من كان – يستطيع أن يقهرها بأي طريقة من الطرق سينال تصفيق واستحسان الجمهور، وكل التشجيع الممكن تخيله لإخفاء ضعفه وتهدئة أي شهوة أخرى يخطر بباله أن يشبعها. إن الرجل الذي يدعم بثروته الخاصة ما كان يجب على الكل توفيره بطريقة أخرى، يطوق بجميله كل فرد في المجتمع؛ ولذلك يكون العالم بأكمله مستعدا لأن يقدم له آيات الشكر والتقدير، ويحسب نفسه ملزما بواجب أن يقول عن كل هذه الأفعال أنها فاضلة، دون فحص أو حتى النظر في الدوافع التي كانت منطلقا لأدائها. لا يوجد شيء أكثر إفسادا للفضيلة أو للدين نفسه من جعل البشر يؤمنون بأن

منح المال للفقراء – رغم أنهم لن يفارقوه إلا بعد الموت – سوف يؤدي إلى التكفير التام في الحياة الأخرى عن الخطايا التي ارتكبوها في هذه الحياة. فقد نجد وغدًا زنيمًا كان مذنبًا بجريمة قتل وحشية ينجو من العقاب الذي يستحقه بمساعدة شهود الزور، سنقول أنه يثرى ويراكم ثروة هائلة، وبناء على نصيحة أبيه كاهن الاعتراف يترك كل ممتلكاته لدير ولأطفاله المتسولين. أي تعويضات رائعة قدَّمها هذا المسيحي الطيب عن جريمته، وأي رجل شريف كانه القس الذي وجَّه ضميره؟ هذا الذي يفترق عن كل ما يملكه في عمره – أيًا كان المبدأ الذي يتصرف من خلاله – إنما يستغني فقط عمَّا كان يخصه؛ أما البخيل الغني الذي يرفض أن يساعد أقرب أقربائه أثناء حياته، رغم أنهم لم يثيروا سخطه أبدا عن عمد، ويوصي بأمواله لما نسميه بالاستخدامات الخيرية بعد وفاته، قد يتخيل ما يشاء عن طيبته، لكنه يسلب حق نسله. إني أفكر الآن في مثال متأخر للخيرية، هبة استثنائية تسببت في لغط كبير في العالم، لديّ رغبة في أن أضعه في الضوء الذي أعتقد أنه يستحقه، وأستأذن – لمرة واحدة كي أرضي المتحذلقين – في أن أتناوله بطريقة بلاغية إلى حد ما.

أن يتمكن رجل ذو مهارة قليلة في الطب وبلا أي تعليم تقريبا من ممارسة الطب عبر حيل وضيعة وادخار ثروة طائلة ليس بالمعجزة الضخمة، لكن أن يتمكن من ترسيخ نفسه بعمق هكذا وبشكل جيد لدى الرأي العام لدرجة الحصول على تقدير الأمة وتأسيس سمعة تتجاوز كل معاصريه، دون أي ميزة أخرى غير المعرفة التامة بالجنس البشري ومقدرة على تحقيق أقصى استفادة منها فهذا هو الشيء الاستثنائي.

إذا كان هناك رجل وصل إلى هذه الذروة من المجد حتى أذهله الغرور تقريبا، فصار يولي اهتمامه أحيانا لخادم أو لأي شخص حقير بلا مقابل، وفي نفس الوقت يهمل رجلا نبيلا يدفع أتعابا باهظة، وفي أوقات أخرى يرفض أن يترك زجاجته من أجل عمله دون أي اعتبار لنوعية الأشخاص الذين أرسلوا في طلبه، أو للخطر الذي هم فيه... إذا كان شخصا فظا وعابسا يتظاهر بأنه ذو حس ساخر ويعامل مرضاه كالكلاب - رغم أنهم أشخاص ذوو وجاهة - ولا يُقدِّر إنسانا إلا إذا ألَّهه ولم يضع يقينية نبوءاته موضع المساءلة أبدا... إذا كان شخصا يهين العالم كله، ويُحقر من شأن الطبقة الأولى من النبلاء، ويطول بوقاحته حتى العائلة الملكية ... إذا كان من أجل الحفاظ على شهرة كفاءته وزيادتها كذلك يأنف من استشارة من هم أفضل منه في أي حالة طوارئ أيا كانت، وينظر متعاليا باحتقار للأكثر استحقاقا في مهنته، ولا يتشاور مع أي طبيب آخر غير ذلك الذي يشيد بعبقريته الفائقة، وينحني من أجل تسليته، ولا يقترب منه أبدا إلا بكل المذلة الوضيعة التي يمكن أن يعامل بها منافقو البلاط الأمير... إذا كان هناك رجل كشف في حياته من ناحية عن مثل هذه الأعراض الواضحة للغرور المفرط وفي نفس الوقت لطمع لا يشبع في الثراء، وهو من ناحية أخرى كشف عن عدم وجود أي اعتبار للدين أو محبة لأقاربه، بلا رحمة نحو الفقراء وتقريبا بلا إنسانية نحو بني جلدته، إذا لم يُظهر أي دليل على أنه أحب بلاده، أو كانت لديه روح وطنية، أو كان محبا للفنون أو للكتب أو للأدب، فبمَ يجب أن نحكم على دافعه .. على المبدأ الذي تصرف من منطلقه عندما نجد بعد وفاته أنه ترك مقدارا تافها ليتوزع بين أقاربه المحتاجين إليه، وترك ثروة طائلة

لجامعة ليست بحاجة إليها؟

فليكن أي رجل خيِّرًا بقدر ما يستطيع دون أن يفقد عقله أو إحساسه السليم؛ فهل يمكنه أن يفكر في شيء أخر غير أن هذا الطبيب الشهير قام في وصيته – كما في كل شيء آخر – بإشباع عاطفته مرضيا غروره بسعادة الخطة الجهنمية؟ عندما فكر في النُصُب التذكارية والنقوش، مع كل قرابين المديح التي ستُقدَّم له، وعلاوة على كل هذا ضريبة الشكر السنوية، ضريبة التوقير والتبجيل التي ستؤدَّى إلى ذكراه بفخامة واحترام كبيرين للغاية.. عندما قدَّر كيف ستُعذَّب الفطنة والابتكار وكيف ستُنهَب الفنون والبلاغة حتى يتم العثور على كلمات مديح تليق بكرم وجلال المتبرع وروحه الوطنية، والامتنان المصطنع من المتلقين، أقول أنه عندما تفكَّر وتأمل في هذه الأشياء فلابد أنها ألقت روحه الطموح في نوبات هائلة من النشوة والمتعة؛ خاصة عندما فكر في دوام مجده، والخلود الذي سيجلبه لاسمه بطريقته. إن الآراء الخيرية المترفقة غالبا ما تكون خاطئة بشكل غبي؛ فعندما يموت الرجال أو يرحلون يجب علينا أن نحكم على أفعالهم كما نفعل مع الكتب، ولا نخطئ فهمهم ولا فهمنا. إن (آيسكولابيوس[19]) البريطاني كان رجلا عاقلا بلا شك، ولو كان قد تأثر بالخيرية والإحسان أو بالروح العامة أو حب المعرفة، وكان يهدف إلى صالح الجنس البشري بشكل عام، أو صالح مهنته هو نفسه بشكل خاص، وتصرف انطلاقا من أي من هذه المبادئ؛ لم يكن من الممكن أبدا أن يكتب مثل هذه الوصية؛ لأن ثروة كبيرة كهذه كان من الممكن

19- إله الطب عند الرومان

أن تدار بطريقة أفضل، وأي رجل ذي مقدرة أقل بكثير كان سيجد العديد من الطرق الأفضل لإنفاق المال. لكننا إذا وضعنا في اعتبارنا أنه كان بلاشك رجلا ذا غرور كبير، مثلما كان رجلا عاقلا، وسمحنا لأنفسنا فقط أن نحدس بأن هذه المنحة الاستثنائية ربما تكون قد أتت من مثل هذا الدافع؛ فسنكتشف على الفور تميز مواهبه وبراعة معرفته بالعالم؛ لأنه إذا كان هناك رجل يمكنه أن يجعل من نفسه خالدا بأن يظل دائما ممدوحا ومؤلها بعد موته، وأن يحصل على كل آيات الشكر ومراتب الشرف والثناء الممنوحة لذكراه والتي كان بوسع الخيلاء نفسها أن تتمناها، فإني لا أعتقد أنه ليس في مقدور المهارة الإنسانية أن تبتكر وسيلة أكثر فاعلية. لو كان قد سار وراء الجيوش، وراض نفسه في خمسة وعشرين حصارا، وخاض حروبا مثلها في العدد بشجاعة الإسكندر، وعرَّض حياته وأعضاء جسده لجميع متاعب وأخطار الحرب في خمسين حملة مجتمعة... أو ضحَّى بسعادته وراحته وصحته من أجل الأدب مكرسا نفسه لعرائس الشعر، وأنفق أيامه جميعا في دراسة شاقة وفي متاعب التعلم... أو تميَّز بالاستقامة والزهد والتقشف في الحياة متخليا عن كل مصلحة دنيوية، وسار دائما في طريق الفضيلة الأكثر صرامة، لم يكن ليوفر الخلود لاسمه بشكل فعال هكذا؛ إذ أنه بعد حياة شهوانية وإشباع مترف لعواطفه ها هو قد فعلها الآن دون أي متاعب أو إنكار للذات، كل ما في الأمر هو اختيار أين تُنفَق أمواله عندما يكون مجبرا على تركها.

أي ثري بخيل وأناني تماما لدرجة أنه يتلقى أرباح أمواله حتى بعد موته ليس لديه شيء آخر يفعله غير أن يحتال على أقاربه ويترك

أملاكه لجامعة شهيرة : إنها أفضل الأسواق لشراء الخلود بأقل جدارة واستحقاق؛ وفيها المعرفة والفطنة والذكاء هم نماء وصناعة المكان – وقد قلت ذلك تقريبا – حيث تجد هناك رجالا ماهرين بعمق فيما يتعلق بالطبيعة البشرية، ويعرفون ما الذي يريده المتبرعون لهم؛ وهباتهم الاستثنائية ستلاقي دائما تعويضات استثنائية، ومقدار المنحة هو دائما مقياس مدائحهم، سواء كان المانح طبيبا أم سمكريا، بمجرد أن ينقرض الشهود الأحياء الذين قد يسخرون منهم. لا يمكنني أبدا التفكير في الذكرى السنوية لعيد الشكر المكرسة لرجل عظيم إلا ومر بخاطري معجزات الشفاء والأشياء الأخرى المدهشة التي ستقال عنه بعد مائة عام من الآن، وأنا أجرؤ على التنبؤ بأنه قبل نهاية القرن الحالي سيتم تلفيق قصص في صالحه (لأن أهل البلاغة لا يُطلب منهم أبدا أداء القَسَم) لا تقل في خرافتها عن أي أساطير حول القديسين.

لم يكن محسننا الماكر جاهلا بكل هذا، فقد فهم الجامعات وعبقريتها وسياستها، ومن ثَمَّ توقع وعرف أن البخور الذي سيُقدَّم إليه لن يتوقف خلال الأجيال الحالية أو القليلة التالية، وأنه لن يدوم فقط على المدى التافه لثلاثمائة أو أربعمائة عام، لكنه سيستمر ممنوحا له خلال جميع التغيرات والثورات في الحكومة أو الدين، طالما عاشت الأمة وبقيت الجزيرة ذاتها.

إنه لشيء مؤسف أن يكون لدى هؤلاء المغرورين مثل هذه الإغراءات كي يظلموا ورثتهم الشرعيين؛ لأنه عندما يمتلك رجل في دعة وبحبوحة من العيش، ممتليء حتى التخمة بالخيلاء، ويسايره في غروره أعظم

من في بلد متحضرة، أقول عندما يمتلك هذا الرجل مثل هذا الأمان المعصوم بشكل سري من أجل إجلال أبدي وعبادة لروحه العظيمة سيتم تسديدهما بهذه الطريقة الاستثنائية، فهو يشبه بطلا في معركة يتذوق كل مباهج الحماس متغذيا على خيالاته. إنها ترفع معنوياته في حالة المرض، وتخفف عنه في حالة الألم، وتحرسه أو تبعد عن ناظريه كل أهوال الموت، وأبشع مخاوف المستقبل.

إذا قيل أن كونك منتقدا قاسيا هكذا؛ تتفحص الأمور وتزخرف الضمائر بهذه الدقة، سيُثني الناس عن إنفاق أموالهم بتلك الطريقة، وليكن مال المتبرع ودافعه ما يكون؛ فذلك الذي يتلقى المساعدة هو الرابح .. إذا قيل ذلك لن أتبرأ من هذه التهمة، لكن أنا لدي رأي أنه ليس ضررا للجمهور إذا منع المرء الرجال من تكديس ثروات طائلة للغاية في الأرصدة الميتة[20] في المملكة. يجب أن يكون هناك تفاوت كبير بين الجزء النشط والجزء الخامل من المجتمع لكي يصير سعيدا، وأينما تم تجاهل ذلك فإن كثرة المنح والأوقاف قد تكون في القريب العاجل زائدة وضارة بالبلاد. إن الخيرية – حيثما تكون متسعة بشكل مفرط – قلَّما تفشل في تشجيع الكسل والتبطل، ونفعها قليل للصالح العام ولا تصلح لشيء إلا في زيادة المتعطلين وتدمير الصناعة. كلما زادت المعاهد وبيوت الفقراء التي تبنيها كلما حصدت زهورا أكثر. ربما كان لدى المؤسسين والمتبرعين الأوائل مقاصد عادلة وطيبة، وربما كانوا

20- مصطلح تجاري يعني كمية من منتج اشترته شركة ما أو صنعته ولكنها غير قادرة على بيعه. تخزين الأرصدة الميتة يكلف نقودا وبالتالي يقلل من مقدار الربح الذي يمكن أن تحققه الشركة

يعملون لأكثر الأغراض جدارة بالثناء من أجل سمعتهم هم ومكانتهم، لكن منفذي هذه الوصايا، مديري المؤسسات الذين يأتون من بعدهم، لديهم وجهات نظر مختلفة تماما؛ ونادرا ما نرى مؤسسات خيرية تتم إدارتها واستخدامها لفترة طويلة كما كان مقصودا منها أن تكون في البداية. ليس لديّ أي نية قاسية، ولا أقل هدف له مذاق الوحشية. فأنا أعتبر أن وجود ملاجئ كافية للمرضى والجرحى واجب لا غنى عنه في كل من السلم والحرب : الأطفال الصغار الأيتام، والعجائز الذين ليس لهم من مُعين، وكل هؤلاء العاجزين عن العمل يجب أن يتم العناية بهم بسرعة وعطف. لكن كما أني من ناحية لم أهمل على الإطلاق هؤلاء العاجزين والمحتاجين بالفعل دون أن يطلبوا شيئا لأنفسهم، فإني على الناحية الأخرى لن أشجع التسول والكسل في الفقراء؛ إذ ينبغي على الجميع أن يبدأوا في العمل الذي يستطيعونه بأي شكل، وينبغي عمل فحوصات وإحصاءات حتى ما بين العجزة : فربما أمكن إيجاد وظائف لأغلب من لدينا من المُقعَدين، والكثيرين من غير القادرين على العمل الشاق، وكذلك العميان، طالما أن صحتهم وقوتهم تسمح لهم بذلك. ما أضعه الآن تحت طائلة التدبر والتأمل يؤدي بي بشكل طبيعي إلى ذلك النوع من الإلهاء الذي رزحت البلاد تحت نيره لبعض الوقت؛ ألا وهو العاطفة المتحمسة للمدارس الخيرية.

أغلب الناس مفتونون بفائدتها وتميزها، لدرجة أن أي امرء يجرؤ على معارضتها بصراحة يكون عرضة لأن يُرجَم بالحجارة من قِبَل الرعاع. فالأطفال الذين يتعلمون مبادئ الدين ويستطيعون أن يقرأوا كلام الله لديهم فرصة أكبر ليتقدموا في حياتهم بفضيلة وأخلاقيات طيبة، ولابد

أنهم بالتأكيد أكثر تهذيبا من الآخرين الذين يعانون من الحياة بعشوائية وليس لديهم من يعتني بهم. أيّ فساد وانحراف لابد وأن يكون عليه رأي هؤلاء الذين لا يفضلون أن يروا الأطفال وهم مرتدون ملابس محتشمة، بملاءات كتانية نظيفة على الأقل مرَّة كل أسبوع، يسيرون وراء معلمهم بطريقة منظمة إلى الكنيسة؛ عن أن يلتقي في كل مكان بمجموعة من الحثالة دون قمصان أو عراة تماما، هؤلاء الغافلون عن بؤسهم والذين يزيدون منه باستمرار بتجديفاتهم ولعناتهم ! هل يمكن لأي امرء أن يشك في أن هؤلاء هم الحضانة الكبرى للصوص والنشالين؟ أي أعداد من المجرمين والجناة الآخرين قد حاكمناهم وأدنَّاهم في كل دورة انعقاد لمحكمة ! ستمنع هذا المدارس الخيرية، وعندما يتلقى أطفال الفقراء تعليما أفضل سيجني المجتمع فائدة ذلك في غضون سنوات قليلة، وستتطهر الأمة من كل هؤلاء الأوغاد الكثيرين الذين يملأون الآن هذه المدينة العظيمة والبلد بأكملها.

هذا هو الشعار العام، وأي امرء ينطق بأقل كلمة ضده فهو عديم الإحسان وقاسي القلب ومتوحش إن لم يكن شخصا حقيرا شريرا مدنسا ملحدا. بالنسبة لجمال المنظر، فلا أحد يجادل فيه؛ لكني لا أريد بلدا يدفع ثمنا باهظا للغاية من أجل متعة زائلة هكذا، ولو أننا نحَّينا جانبا بهرجة العرض فإن كل شيء مادي في هذا الخطاب العام يمكن الرد عليه على الفور.

بالنسبة للدين فإن الجزء الأكثر معرفة وأدبا بأي بلد في أي مكان لديه أقل القليل منه؛ فالبراعة لها اليد الأعظم في خلق المحتالين عن الغباء،

والرذيلة بشكل عام لا تجد مكانا تكون فيه أكثر سيطرة من ذلك المكان الذي تزدهر فيه الفنون والعلوم. إن الجهل – كما يقول المثل – يُعد هو أم الإخلاص والتفاني، ومن المؤكد أننا لن نجد البراءة والصدق أكثر شيوعا في أي مكان إلا ما بين الأكثر جهلا وأمية؛ أهل الريف الفقراء الحمقى. الأمر التالي الذي يجب التفكير فيه هو الأخلاق والآداب الحميدة التي ستغرسها المدارس الخيرية في فقراء الأمة. أعترف أن امتلاك ما تم ذكره بأي درجة – في رأيي – هو ميزة تافهة إن لم تكن ضارة، على الأقل لا يوجد شيء أقل ضرورة منها بالنسبة للفقراء الكادحين. ليست المجاملات المهذبة هي ما نريدها منهم، بل عملهم واجتهادهم. لكني أتخلى عن هذه المقالة عن طيب خاطر؛ وسنقول أن الأخلاق الحميدة ضرورية لجميع الناس، لكن بأي طريقة سيتم تزويدهم بها في المدارس الخيرية؟ ربما يتعلم الأولاد هناك أن يرفعوا قبعاتهم دون تمييز لكل من يقابلونهم، إلا إذا كان متسولا؛ لكني لا أستطيع تصور أنهم سيكتسبون فيها أي آداب تتجاوز ذلك.

المعلم ليس مؤهلا بشكل كبير – إذ يمكن تخمين ذلك من مرتبه – وإذا كان باستطاعته أن يُدرِّس لهم الأخلاق الحميدة فليس لديه وقت لذلك؛ فأثناء وجودهم بالمدرسة هم إما يتعلمون أو يتلون درسهم عليه أو مشغولون في الكتابة أو الحساب، وبمجرد انتهاء المدرسة ينطلقون في حرية لا تقل عن تلك التي يتمتع بها أطفال الفقراء الآخرين. إن ما يؤثر على عقول هؤلاء الأطفال هو مبدأ ونموذج الوالدين وهؤلاء الذين يأكلون ويشربون ويتحدثون معهم؛ والوالدان الشريران اللذان يسلكان طرق السوء ولا يباليان بأطفالهما لن يكون لهما ذرية مهذبة أخلاقيا حتى

لو ذهبوا إلى مدرسة خيرية إلى أن يتزوجوا. إن الشرفاء المجتهدين من الناس – مهما كانوا شديدي الفقر – إذا كان لديهم هم أنفسهم أي تصور عن الصلاح والاحتشام سيُبقون أطفالهم في رهبة ولن يسمحوا لهم أبدا بالنبش في الشوارع وقضاء الليل في الخارج. هؤلاء الذين يعملون هم أنفسهم ولديهم نوع من السيطرة على أطفالهم سيجعلونهم يفعلون شيئا ما أو آخر تكون له فائدة بمجرد أن تكون لديهم القدرة على ذلك – مهما كانت قليلة – وإذا كان هؤلاء الأطفال غير قابلين للتحكم ولا تجدي معهم الكلمات ولا اللكمات؛ فلن تصلحهم أي مدرسة خيرية، لا .. فالخبرة تعلمنا أنه بين أولاد المؤسسات الخيرية هناك الكثير من الأولاد السيئين الذين يسبون ويلعنون طوال الوقت، وفيما عدا الملابس فإنهم يشبهون كثيرا الحثالة التي طالما أنبتتها منطقة (تاورهيل[21]) أو (سانت جيمس[22]).

أصل الآن إلى الجرائم الهائلة والحشد الضخم من المجرمين الذين تنبني عليهم الحاجة لهذا التعليم المرموق. لا يمكن إنكار أن هناك الكثير من السرقات وعمليات السطو التي تُرتكَب يوميا في المدينة وحولها، وأن أعدادا هائلة تواجه الموت بسبب هذه الجرائم، لكن لأن هذا كثيرا ما يقترن بالحديث عند مساءلة فائدة المدارس الخيرية، كما لو لم يكن هناك أي خلاف مع هذا، وأن هذه المدارس ستعالج إلى حد كبير

21- منطقة مرتفعة شمال غربي برج لندن وتقع خارج حدود المدينة بالضبط وكانت فيما مضى منطقة تنفيذ أحكام الإعدام

22- منطقة في وسط لندن تحولت في القرن السابع عشر إلى حي سكني للأريستقراطية الإنجليزية

هذه الاضطرابات وستمنعها مع الوقت؛ فإني أنوي أن أدرس الأسباب الحقيقية لهذه الشرور المثيرة للشكوى عن حق، وسأوضح بما لا يدع مجالا للشك أن المدارس الخيرية – وكل شيء آخر من شأنه أن يشجع على الكسل ويمنع الفقراء من العمل – هي مدخل أكبر لنمو الإجرام من نقص القدرة على القراءة والكتابة أو حتى أفدح حالات الجهل والغباء.

هنا لابد من أن أقاطع نفسي لأتجنب صيحات الاحتجاج من بعض الأشخاص المتعجلين الذين سيصرخون بمجرد قراءة ما قلته شاكين من أنهم أبعد ما يكونون عن تشجيع الكسل إذ يربون أطفال مؤسساتهم الخيرية ويعلمونهم حرفا يدوية ومهنا تجارية كذلك وكل أساليب العمل الشريف. أعدهم بأني سأضع ذلك في حسباني فيما يلي، وسأرد عليه دون خنق أي شيء يمكن أن يقال في صالحهم.

في مدينة مزحمة بالسكان ليس من الصعب على وغد صغير زج بنفسه داخل أحد الحشود بيده الصغيرة وأصابعه الخفيفة أن يخطف منديلا أو علبة نشوق من رجل مشغول بالتفكير في العمل، وغير منتبه لجيبه. والنجاح في الجرائم الصغيرة قلما يفشل في أن يؤدي إلى الجرائم الأكبر؛ وهذا الذي ينشل الجيوب دون عقوبة في الثانية عشرة، من المحتمل أن يغدو لص منازل في السادسة عشرة، ومجرما ذا باع طويل قبل أن يبلغ العشرين بفترة طويلة. هؤلاء الذين يتميزون بالحرص وكذلك بالجرأة – وليسوا سكِّيرين – قد يصنعون عالما من الأذى قبل أن يتم اكتشافهم؛ وتلك واحدة من مصادر الإزعاج الأكبر في هذه المدن الضخمة مفرطة النمو مثل لندن وباريس؛ أنها تأوي أوغادا ومجرمين مثلما تأوي مخازن

الحبوب الجرذان، فهي تقدم مأوى دائما لأسوأ الناس، وهي أماكن آمنة لآلاف المجرمين الذين يرتكبون يوميا السرقات وعمليات السطو، ولكنهم بالتغيير المتكرر لأماكن سكناهم قد يخفون أنفسهم لسنوات كثيرة، وربما يهربون للأبد من أيدي العدالة، إلا إذا قُبض عليهم بالصدفة وهم متلبسون. وعندما يتم الإمساك بهم ربما تتطلب الأدلة الوضوح أو تكون من ناحية أخرى غير كافية، أو لا تكون الشهادات قوية بما يكفي، وتحرك الشفقة المحلفين وغالبا القضاة، ورغم أن ممثلي الادعاء يكونون أشداء في البداية إلا أنهم غالبا ما يتراجعون في قرارهم قبل أن يأتي وقت المحاكمة؛ فالقليل من الرجال هم من يفضلون الأمن العام على راحتهم الشخصية، والإنسان ذو الطبيعة الطيبة لا يتصالح بسهولة مع فكرة إنهاء حياة إنسان آخر، حتى لو كان يستحق المقصلة. أن تكون سببا في موت أي شخص - حتى لو كان هذا ما تتطلبه العدالة - هو ما يفزع أغلب الناس، خاصة أهل الضمير والنزاهة، عندما يريدون حكما أو قرارا. وهذا هو السبب في أن الآلاف ممن يستحقون أشد العقوبات ينجون، وهذا هو السبب كذلك في أن هناك الكثير من الجناة الذين يخاطرون بجرأة على أمل أنهم إذا قُبض عليهم فسيكون لديهم نفس الحظ الجيد للإفلات.

لكن لو كان البشر يتصورون وكانوا كذلك مقتنعين بأنهم كما ارتكبوا بالتأكيد واقعة تستحق الشنق فسيُشنقون بالتاكيد؛ فستصبح عقوبات الإعدام نادرة للغاية، وأكثر المجرمين تهورا سيشنق نفسه تقريبا بمجرد أن يقتحم بيتا لسرقته. من النادر أن تتسم شخصية اللص بالغباء والجهل. إن عمليات السطو في الطرق العامة والجرائم الأخرى الجريئة

يرتكبها غالبا محتالون ذوو شجاعة وذكاء، والمجرمون الذين يحققون أي درجة من الشهرة هم عادة أشخاص دهاة ماكرون، وهم ضليعون جدا في نظام المحاكمات، ومطلعون على كل شذوذ في القانون يمكن أن يكون ذا نفع لهم، ولا يهملون أصغر خطأ في لائحة الاتهام، ويعرفون كيف يستفيدون من أقل هفوة في شهادة وفي كل شيء آخر يمكن أن يخدم محاولتهم للنجاة بأنفسهم.

إنها مقولة عظيمة : أنه من الأفضل أن يفلت خمسمائة مذنب عن أن يعاقَب بريء واحد. هذا المبدأ صحيح فقط بالنسبة للمستقبل وفيما يتعلق بعالم آخر، لكنه خاطئ للغاية فيما يتعلق بخير المجتمع الدنيوي. إنه لشيء رهيب أن يساق إنسان إلى الموت على جريمة لم يرتكبها؛ لكن بالرغم من ذلك قد تجتمع الظروف بشكل غريب في سياق التنوع اللانهائي للحوادث حتى أنها من الممكن أن تتجاوز كل الحكمة التي يمتلكها القضاة والضمائر التي يحوزها المحلفون. لكن حيث يسعى الرجال لتجنب هذا بكل الحرص والحيطة اللذين يمكن للحكمة البشرية اتخاذهما، لو حدثت مثل هذه المصيبة ربما مرَّة أو مرتين في خلال عشر سنوات، بشرط أن يقام العدل طوال ذلك الوقت بكل صرامة وقوة، ولم يُسمح لشخص مذنب واحد بأن يفلت دون عقاب؛ فستكون تلك ميزة هائلة لأي بلد، ليس فقط فيما يتعلق بتأمين ممتلكات كل فرد وسلام المجتمع بشكل عام، لكنها ستنقذ كذلك حيوات المئات – إن لم يكن الآلاف – من التعساء المعوزين الذين يُشنقون يوميا بسبب أمور تافهة، والذين لم يكونوا ليحاولوا القيام بأي شيء ضد القانون، أو على الأقل لم يكونوا ليجازفوا بارتكاب جرائم كبرى لو لم يكن الأمل في النجاة –

إذا قُبض عليهم – واحدا من الدوافع التي أحيت عزمهم. لذلك وحيث تكون القوانين واضحة وصارمة، فإن كل إهمال في تنفيذها، وتسامح المحلفين وتكرر الإعفاءات هي بالأساس أعمال وحشية تجاه دولة أو مملكة آهلة بالسكان أكبر بكثير من استخدام المخالع وغيرها من وسائل التعذيب الأكثر حدة.

يمكن البحث عن سبب آخر كبير لهذه الشرور في قلة الحذر لدى هؤلاء الذين يتعرضون للسطو، والإغراءات الكثيرة التي يقدمونها. فهناك الكثير من العائلات المهملة جدا في الاعتناء بأمان بيوتها، بعضها تتم سرقته نتيجة إهمال الخدم، والبعض الآخر نتيجة التذمر والتحفظ في دفع ثمن المزاليج والمصاريع. إن النحاس والقصدير بمثابة نقود حاضرة، وهما في كل مكان في البيت، ربما تكون النقود والمعادن النفيسة مؤمَّنة بطريقة أفضل، لكن القفل العادي ينفتح بسرعة بمجرد أن يدخل وغد واحد.

من الواضح إذن أن أسبابا مختلفة كثيرة تتوافق، وشرورا نادرة عديدة يمكن تجنبها تسهم في محنة أن يتعرض الناس لإزعاج السارقين واللصوص، والتي تعرضت وستتعرض لها كل البلاد بطريقة أو بأخرى، في المدن الكبيرة وبالقرب منها، وخاصة المدن الضخمة والمفرطة النمو. الفرصة هي التي تصنع اللص؛ الإهمال واللامبالاة في إغلاق الأبواب والنوافذ، الحنان الزائد من المحلفين وممثلي الادعاء، سهولة الحصول على تأجيل وتكرر الإعفاءات، لكن الأكثر من كل ذلك هو الأمثلة العديدة لهؤلاء المعروفين بأنهم مذنبون، معدومو المال والأصدقاء، ولكن

بالتحايل على المحلفين، أو بإرباك الشهود، أو الحيل والمناورات الأخرى يجدون سبلا للإفلات من المقصلة. هذه كلها إغراءات قوية تجتمع على جذب المعوزين الذين ينقصهم المبادئ والتعليم.

يمكنك أن تضيف إلى هذه الأسباب كعوامل مساعدة للمحنة، عادة الكسل والتراخي والنفور القوي من العمل والمواظبة التي سيكتسبها كل الشباب الذين لم يتربوا على العمل المباشر، أو على الأقل لم يظلوا في العمل معظم أيام الأسبوع وأغلب أوقات النهار. كل الأطفال الكسالى – حتى الأفضل من كلا الجنسين – هم أصدقاء سوء لبعضهم البعض متى اجتمعوا.

ليست إذن الحاجة إلى تعلم القراءة والكتابة، لكن تزامن وتعقُّد شرور أكثر جوهرية هي الحضانة الأبدية للفاسقين المنبوذين في البلاد الكبيرة والغنية، وأي امرء يتهم الجهل والغباء والخسة باعتبارهم السبب الأول – أو ما يسميه الأطباء بالنواة الأولى – فلتجعله يدرس حياة أوغادنا العاديين ومجرمينا الشائعين ويفحص عن قرب حواراتهم وأفعالهم؛ وسيجد أن العكس هو الصحيح، وأن اللوم يجب أن يوضع بالأحرى على المكر والدهاء المفرطين، والمعرفة الزائدة عن الحد بشكل عام والتي يمتلكها أسوأ الأوغاد وحثالة البلاد.

الطبيعة البشرية هي نفسها في كل مكان؛ فالعبقرية والفطنة والمواهب الطبيعية دائما ما يشحذها الاستعمال، ويمكن أن تتطور كثيرا بممارسة أحقر السلوكيات الإجرامية بنفس القدر الذي يمكنها أن تتطور به في ممارسة الصناعة أو أكثر الفضائل نبلا. لا يوجد موقف في الحياة لا

يمكن فيه استعراض الكبرياء والتنافس وحب المجد. إن النشال الصغير الذي يجعل من ممثل الادعاء الغاضب أضحوكة ويتملق بمهارة العدالة العجوز ليقنعها ببراءته، يحسده أقرانه ويُعجب به جميع إخوته في الطائفة. يمتلك الأوغاد نفس العواطف التي تتطلب الإشباع مثلهم مثل بقية الرجال، ويُقدِّرون أنفسهم بناء على شرفهم وإخلاصهم لبعضهم البعض، وشجاعتهم، وجرأتهم وغيرها من الفضائل الرجولية الأخرى، مثلهم مثل الرجال ذوي المهن الأفضل، وفي المغامرات الجسورة قد يكون عزم اللص مدعوما بكبريائه كحال الجندي الشريف الذي يحارب من أجل بلاده.

إذن الشرور التي نشكو منها هي نتيجة لأسباب مختلفة تماما عما ننسبها لها. لابد وأن البشر متقلبون بشدة في عواطفهم – إن لم يكونوا غير متسقين مع أنفسهم – حتى أنهم في مرَّة يرفعون المعرفة والتعلم باعتبارهما أفضل الوسائل لدعم الدين، وفي مرة أخرى يدافعون عن الجهل باعتباره أم الإخلاص والتفاني.

لكن إذا كانت الأسباب المزعومة لهذا التعليم العام ليست هي الأسباب الصحيحة، فمن أين يتأتى أن المملكة كلها كبيرها وصغيرها مغرمون به وبالإجماع؟ ليس هناك أي هداية إعجازية يمكن ملاحظتها فيما بيننا، ولا ميل كوني للخير والأخلاق انتشر في الجزيرة على حين غِرَّة؛ هناك الكثير من الشر كما كان دائما، والخيرية فاترة كما هي، والفضيلة الحقيقية نادرة كما هي. لقد كان عام ألف وسبعمائة وعشرين خصبا في الإجرام العتيد، ومميزا بالجرائم الأنانية والأذى المتعمد مثلما كان

أي عام يمكن اختياره في أي قرن أيا كان؛ ولم يرتكب كل هذا أوغاد فقراء جهلة لا يستطيعون القراءة ولا الكتابة، بل أفضل أنواع الناس في الثراء والتعليم؛ حتى أن أغلبهم كانوا أساتذة عظاما في الحساب، وكانوا يعيشون في شهرة وأبهة. الدفع بأنه عندما يكون شيء ما هو الموضة فإن الحشود تتبع الصرخة المشتركة، وأن المدارس الخيرية قد غدت موضة بنفس الطريقة التي شاعت بها التنورات المطوقة – من خلال نزوة – ولا يمكن تقديم تفسير لواحدة أكثر من الأخرى؛ أخشى أن هذا الدفع لن يكون مرضيا للفضوليين، وفي نفس الوقت أنا أشك كثيرا فيما إذا ما كان الكثير من قرائي سيعتقدون أن ما يمكنني تقديمه بالإضافة إلى ذلك له ثقل كبير.

المصدر الحقيقي لهذه الحماقة الحالية هو بالتأكيد مبهم للغاية وبعيد عن مجال الرؤية، لكن ذلك الذي يقدر على إلقاء أقل ضوء على المسائل ذات الغموض الكبير إنما يقوم بعمل طيب للسائلين. أنا مستعد للتسليم بأنه في البداية كان المقصد الأول لهذه المدارس طيبا وخيريا، لكن لكي نعرف ما الذي جعلها تتزايد على هذا النحو المفرط، ومن هم الرعاة الرئيسيون لها الآن؛ فلابد أن نقوم ببحثنا بطريقة أخرى، ونتوجه بأنفسنا نحو الرجال المتحزبين المتعصبين والغيورين على قضيتهم : سواء الأسقفية أو مجلس الكنيسة؛ لكن بما أن الأخير ما هو إلا التقليد البائس للأولى – رغم أن الاثنين متكافئان في الضرر – فسنحصر أنفسنا في (الكنيسة الوطنية)، وننعطف عبر أبرشية لم تنعم حتى الآن بمدرسة خيرية. ... لكني هنا أظن أن ضميري يلزمني أن أطلب العفو من قارئي عن الرقصة المتعبة التي سأقوده إليها إذا كان ينوي متابعتي،

ولذلك أتمنى إما أن يلقي بالكتاب بعيدا ويتركني، أو يسلح نفسه بصبر أيوب كي يتحمل جميع سفاهات الحياة الوضيعة والرياء والثرثرة التي من المحتمل أن يقابلها قبل أن يقطع مسافة نصف شارع.

لابد أولا أن نبحث بين أصحاب المتاجر الشباب، الذين لا يملكون نصف المشروع التجاري الذي تمنوه، وبالتالي لديهم وقت فراغ. لو كان لدي أي مبتدئ جديد منهم فقط القليل من الكبرياء أكثر من المعتاد، ويحب التطفل؛ فسيتنسك بعد قليل في مجلس الكنيسة، حيث يملك عادة السلطة رجال ذوو ثروة ومكانة قديمة، أو من تعرف من المشاكسين الوقحين أو الجعجاعين العنيدين، الذين حصلوا على ألقاب الوجهاء من الرجال. أسهمه ورصيده ليسا كبيرين، ولكنه يجد في نفسه ميلا قويا للحكم. رجل بهذه المؤهلات يعتقد أنها خسارة وألف خسارة ألا تكون هناك مدرسة خيرية في الأبرشية، فيوصل أفكاره لاثنين أو ثلاثة من معارفه أولا، وهم بدورهم يقومون بالمثل مع آخرين، وخلال شهر واحد لا يكون هناك في الأبرشية موضوع آخر للحديث. وكل شخص يبتكر خطبا ومجادلات تؤدي إلى الغرض وفقا لقدراته : يقول أحدهم إنه لعار شاذ أن نرى فقراء كثيرين هكذا غير قادرين على تعليم أطفالهم، ولم تُقدَّم إليهم أي معونة في الوقت الذي نجد لدينا الكثير من الأغنياء. ما الذي تقوله عن الأغنياء؟ - يرد آخر – إنهم الأسوأ، فلابد أن يكون لديهم الكثير من الخدم والسائسين والخيول، إن بمقدورهم أن ينفقوا المئات، وبعضهم ينفق الآلاف من الجنيهات على المجوهرات والأثاث، لكنهم لا يوفرون شلنا لمخلوق فقير يحتاجه، وعندما يدور الحديث عن الموضات والموديلات ينصتون بانتباه عظيم، لكنهم يصمون آذانهم عمدا عن

صرخات الفقراء. في الحقيقة يا أخي – يرد الأول – أنت محق تماما، أنا لا أعتقد أن هناك أبرشية في انجلترا أسوأ من أبرشيتنا بالنسبة للخيرية والإحسان، إنهم فقط من هم مثلك ومثلي الذين يفعلون الطيب لو كان بمقدورنا، لكن من بين هؤلاء القادرين هناك قلة قليلة هي المستعدة لذلك.

آخرون أكثر عنفا يأتون على ذكر أشخاص بأعينهم، ويلصقون الافتراءات بكل رجل ذي ثروة لا يحبونه، وتثار ألف حكاية فارغة لمصلحة الخيرية والإحسان ويتم تناقلها لتشويه سمعة من هم أفضل منهم. وبينما يحدث هذا في المنطقة بأكملها، يكون صاحبنا الذي كان أول من فتح موضوع هذه الفكرة الورعة مبتهجا لسماعه أن الكثيرين يدخلون في الموضوع، ويجد تميزا كبيرا في كونه السبب الأول لكل هذا الحديث والصخب. لكن لا هو ولا رفاقه لهم شأن كاف لإقامة هذا الأمر على قدميه، ولابد من العثور على شخص ما لديه اهتمام أكبر؛ شخص يتم مخاطبته وتوضيح ضرورة وخير وفائدة ومسيحية مثل هذا المقصد إليه، وبعد ذلك لابد من إطرائه : في الحقيقة يا سيدي إذا تبنيت هذه القضية فليس هناك امرء أكثر تأثيرا منك على أفضل من في الأبرشية، أنا متأكد أن كلمة واحدة منك ستلزم هؤلاء القوم، إذا ما اقتنع قلبك بهذا الموضوع يا سيدي فسأعتبر أن الأمر تم يا سيدي ... إذا استطاعوا بهذا النوع من البيان أن يجذبوا شخصا عجوزا أحمق أو متطفلا مغرورا لكنه ثري – أو يشاع عنه ذلك – يبدأ الموضوع في أن يكون قابلا للتنفيذ، ويصبح موضعا للحديث بين الطبقة الأفضل. فالقس ومساعده والمُحاضر يثنون على المشروع الورع في كل مكان.

وفي هذه الأثناء فإن المبادرين الأوائل لا يكلون ولا يملون؛ ولو كانوا مذنبين بأي رذيلة واضحة فإما أنهم سيضحون بها حبا في السمعة الطيبة، أو على الأقل سيصبحون أكثر حذرا وسيتعلمون كيف يلعبون لعبة النفاق، مدركين تماما أن كونهم آثمين أو مشهورين بعمل المنكرات لا يتسق مع الحماسة التي يدَّعونها لأعمال النوافل والورع الزائد.

مع زيادة عدد هؤلاء الوطنيين الصغار فإنهم ينظمون أنفسهم في جماعة ويحددون مواعيد لاجتماعات معلنة، حيث يكون لكل امرء منهم الحرية في استعراض مواهبه مخفيا عيوبه ورذائله. ويكون الدين هو الموضوع، أو بؤس الزمان الذي يتسبب فيه الإلحاد والفسق. ونادرا ما يُشاهَد بينهم الرجال ذوو الثروة الذين يعيشون في أبهة من العيش، والأشخاص الناجحون ممن لديهم مقدار هائل من العمل الخاص بهم. وبالمثل الرجال ذوو العقل والتعليم، فإذا لم يكن لديهم شيء ليفعلونه فإنهم في الأغلب يبحثون عن تسلية أفضل. كل هؤلاء الذين يمتلكون هدفا أسمى، يمكن أن يعتذروا عن الحضور بسهولة؛ لكنهم لابد أن يشاركوا وإلا سيعيشون حياة مؤلمة في الأبرشية. نوعان من الناس يجيئون طوعا؛ رجال الكنيسة الأوفياء الذين يملكون أسبابا قوية للحضور يحتفظون بها سرا، ومن تعرف من الخطاة الماكرين الذين يعتبرون الحضور أمرا جديرا بالتقدير ويأملون في أن يكفر عنهم ذنوبهم، وأن تسقط عنهم دعوى الشيطان بثمن بخس. يأتي البعض إليها لإنقاذ مصداقيتهم، ويأتي آخرون لاستعادتها؛ وفقا لما إذا كانوا قد فقدوها أو يخشون من فقدانها. وآخرون يفعلونها احترازا من أجل زيادة تجارتهم وكسب المعارف، وقد يعترف لك الكثيرون – إذا جرؤوا على أن

يكونوا صادقين وأن يقولوا الحقيقة – أنهم لم يكونوا ليهتموا بها أبدا إلا ليعرفهم الناس في الأبرشية بشكل أفضل. أما الرجال ذوو العقل الذين يرون حماقة الأمر وليس لديهم من يخشونه فيقتنعون بالحضور حتى لا يُحسبون شواذا أو أنهم يسيرون عكس اتجاه العالم بأكمله. حتى هؤلاء الذين يصرون في البداية على رفض الأمر لكنهم في النهاية وبنسبة عشرة إلى واحد يمتثلون نتيجة المضايقة والإلحاح. وبما أن المهمة يتم حسابها اعتمادا على أغلب السكان، فإن تفاهتها هي محاجحة أخرى كثيرا ما تنتشر، وينجذب الكثيرون كي يكونوا مساهمين، هؤلاء الذين بدون ذلك كانوا سيقفون خارجا ويعارضون المشروع كله بشدة.

يُعيَّن مديرو المؤسسة من الأشخاص المتوسطين، ويتم استغلال الكثيرين من الطبقة الأدنى منهم إذا أمكن لجرأة حماستهم أن ترجح كفتها عند الموازنة مع وضاعة ظروفهم. وإذا ما سألت هؤلاء المتحكمين الأفاضل لماذا يأخذون على عاتقهم كل هذا العناء على حساب شؤونهم الخاصة وخسارتهم لوقتهم، فسيجيبون كلهم بالإجماع – إما فرادى أو جمعاء – أن السبب في ذلك هو الاحترام الذي يحملونه للدين والكنيسة، والمتعة التي يشعرون بها عند المساهمة في فعل الخير، والسعادة الأبدية لكل هؤلاء الأبرياء الفقراء الذين كانوا سيواجهون الهلاك على الأرجح في هذه الأزمنة الشريرة التي يملأها المستهزئون والمفكرون الأحرار. إنهم لا يفكرون إطلاقا في مصلحتهم، حتى هؤلاء الذين يتاجرون ويوفرون لهؤلاء الأطفال ما يحتاجونه ليس لديهم أقل نية في أن يحصلوا مما يبيعونه على ما يفيدهم، ورغم أن جشعهم وطمعهم في الربح يكونان واضحين بشكل فاضح في كل شيء آخر؛ إلا أنهم في

هذا الأمر متجردون كلية من الأنانية، وليس لديهم غايات دنيوية. هناك دافع واحد قبل كل شيء – وهو بالتأكيد لدى أغلبيتهم – يجب إخفاؤه بحرص؛ وأقصد به الرضا الذي يشعر به المرء في الأمر والتوجيه. هناك نغمة شجية في كلمة (حاكم) تسحر الحقراء من الناس. كل امرء تعجبه السلطة والتفوق، حتى السيادة على البهائم لها مباهجها، هناك متعة في السيطرة على أي شيء، وهذا هو ما يدعم الطبيعة البشرية بشكل أساسي في عمل معلمي المدارس ذي العبودية المضجرة. لكن إذا كان هناك أدنى شعور بالرضا في السيطرة على الأطفال، فلابد أن يكون التحكم في المُعلم نفسه أمرا ساحرا. أي أشياء طيبة تقال وربما تُكتب للمدير عند اختيار معلم للمدرسة ! كم تدغدغ المدائح، وكم هو سار ألا تكتشف الإفراط في الإطراء، أو صلابة التعبيرات، أو تحذلق الأسلوب !

هؤلاء القادرون على دراسة الطبيعة سيجدون دائما أن أغلب ما يدَّعيه أولئك الأشخاص هو أقل ما لديهم، وأن ما ينكرونه تماما هو دافعهم الأكبر. لا توجد عادة أو خصلة أسهل اكتسابا من النفاق، ولا أي شيء أسرع تعلما من إنكار مشاعر قلوبنا والمبادئ التي نتصرف من منطلقها. لكن بذور كل عاطفة موجودة في فطرتنا ولا أحد يأتي إلى الدنيا بدونها. إذا تفكرنا في وسائل التسلية واللهو لدى الأطفال الصغار، فسنلاحظ أنه لا يوجد ما هو أكثر شيوعا لديهم من أن كل من يُسمح لهم بذلك يسعدون باللعب مع القطيطات والجراء. إن ما يجعلهم دائما يجرُّون ويشدُّون هذه المخلوقات المسكينة حول البيت لا ينبع من شي آخر غير أنهم يستطيعون أن يفعلوا بها ما يشاؤون، ويضعونها في أي وضع أو شكل يريدون، والمتعة التي يشعرون بها من هذا تعود في الأصل إلى

حب السيطرة وذلك المزاج الراغب في السلطة الذي يولد به كل الجنس البشري.

عندما يُمارَس هذا العمل العظيم ويتم إنجازه بالفعل، تبدو أمارات الفرح والصفاء منتشرة على وجه كل مواطن من أهل الأبرشية، وهو الأمر الذي لابد لي أيضا كي أفسره من أن أقوم باستطراد قصير. في كل مكان هناك أشخاص بائسون قذرون من المعتاد رؤيتهم بملابس رثة ومتسخة دائما، هؤلاء الأشخاص نعتبرهم مخلوقات بائسة بشكل عام، وإذا لم يكونوا مميزين للغاية فقلَّما نلاحظهم، ومع ذلك هناك من بين هؤلاء رجال وسيمون ولهم أشكال جيدة مثلهم مثل من هم أفضل منهم حالا. لكن لو تحوَّل واحد من هؤلاء إلى جندي؛ فياله من تغيير كبير إلى الأفضل ذلك الذي سيُلاحَظ فيه، بمجرد أن يوضع في معطفه الأحمر، ونراه يبدو أنيقا بغطاء رأس رماة القنابل الذي يرتديه وجراب ذخيرته وسيفه الهائل ! إن كل من عرفوه من قبل تنتابهم أفكار أخرى عن سماته، والحكم الذي كوَّنه عنه كل من الرجال والنساء في عقولهم يختلف كثيرا عما كان عليه. هناك شيء شبيه بذلك في منظر أطفال المؤسسات الخيرية؛ هناك جمال طبيعي في الاتساق يسعد به أغلب الناس. إنه شيء مُسلٍ للعين أن ترى أطفالا متطابقين – سواء كانوا أولادا أو بنات – يسيرون أزواجا في نظام جيد، وأن تجدهم جميعا متكاملين ومتراصين بنفس الملابس والزينة فلابد أن يزيد ذلك من جمال المنظر، وما يجعله أيضا أكثر إمتاعا في العموم هو النصيب الخيالي الذي يملكه فيه حتى الخدم وأحقر من في الأبرشية، والذي لم يكلفهم شيئا؛ إنها كنيسة أبرشيتنا، إنهم أطفال مدرستنا الخيرية. في كل هذا هناك ظل من المِلكية يداعب

كل امرء لديه الحق في الاستفادة من الكلمات، وعلى وجه الأخص هؤلاء الذين يساهمون بالفعل ولهم يد كبيرة في الدفع بهذا العمل الورع.

إنه لمن الصعب تصور أن البشر يعرفون القليل هكذا عن قلوبهم، وأنهم جاهلون إلى هذا الحد بأحوالهم الداخلية، حتى أنهم يخطئون الضعف والعاطفة والحماسة ويظنونها خيرا وفضيلة وإحسانا؛ لكن لا شيء أصح من أن الرضا والبهجة وحالات النشوة التي يشعرون بها بناء على ما ذكرته، تمر على هؤلاء القضاة البائسين باعتبارها مبادئ التقى والدين. أيا كان من سيتأمل ما قلته على مدى صفحتين أو ثلاثة، ويسمح لخياله بأن يطوف لمسافة أبعد قليلا حول ما سمعه ورآه فيما يتعلق بهذا الموضوع؛ فسيتزود بأسباب كافية بعيدا عن حب الله والمسيحية الصحيحة تفسر له لماذا تكون المدارس الخيرية في مثل هذا الغموض غير العادي، ولماذا هي مقبولة ومحبوبة بالإجماع بين جميع أنواع وأحوال الناس. إنه موضوع يمكن لكل امرء أن يتحدث فيه ويفهمه تماما، ليس ثمة مَعين لا ينضب للقيل والقال أكثر منه، ولا تنويعة من الحوارات المنحطة في الزوارق الصغيرة ومركبات الجياد العمومية. لو حدث أن مديرا أجهد نفسه أكثر من المعتاد لصالح مدرسة أو موعظة وكان في صحبة، كم ستثني عليه النساء، وسيتم إطراء حماسته ونزعته الخيرية حتى تصل إلى السماء ! بالفعل يا سيدي – تقول امرأة عجوز – نحن جميعا ممتنون للغاية لك، لا أظن أن أيا من المديرين الآخرين كان يمكن أن يثير اهتماما كافيا ليجلب لنا أسقفا، لقد أخبروني أن نيافته قد أتى بسببك، رغم أنه لم يكن بصحة جيدة تماما. ويرد الآخر على ذلك بوقار شديد أن هذا هو واجبه، لكنه لا يقيم شأنا لمشاكل أو متاعب في

سبيل أن يكون نافعا للأطفال، الحملان المساكين ! في الحقيقة – يقول هو – كنت مصمما على أن آتي بزوجين من الأكمام الشاش[23] رغم أني ركبت الليلة بأكملها من أجلهما، وأنا سعيد جدا لأنه لم يخب ظني.

وأحيانا يدور الحديث حول المدرسة نفسها، وحول مَن في الأبرشية كلها تحوم حوله أكثر التوقعات بأنه سيبني واحدة؛ فالحجرة القديمة التي تدار منها الآن على وشك الانهيار، وهذا الشخص لديه أملاك واسعة تركها له عمه، ومقدار هائل من المال بالإضافة إلى ذلك، ولن تؤثر ألف جنيه على جيبه.

وأحيانا أخرى يدور الحديث حول الحشود الكبيرة التي تشاهَد في بعض الكنائس، والمبالغ الهائلة التي يتم تجميعها؛ ومن هنا يتحولون بانتقالة هينة إلى الحديث عن القدرات والمواهب المختلفة واستقامة رجال الكنيسة. إن د. (.......) رجل ذو علم ومواهب عظيمة، وأنا أعتقد أنه مخلص جدا للكنيسة، لكنه لا يعجبني في خطبه الخيرية. لا يوجد في العالم رجل أفضل من .... فهو يُخرج المال من جيوبهم بالقوة. وأنا على ثقة من أنه عندما ألقى بموعظته الأخيرة من أجل أطفالنا جعل الكثير من الناس يعطون أكثر مما كان في نيتهم إخراجه عندما جاءوا إلى الكنيسة. استطعت أن أرى ذلك على وجوههم، وفرحت بذلك من كل قلبي.

سحر آخر يجعل المدارس الخيرية فاتنة هكذا للجمهور وهو ذلك

23- تعبير يشير إلى أكمام ملابس الأسقف التي يرتديها في المراسم وتكون مصنوعة من الشاش

الرأي العام الراسخ بينهم، أنها ليست فقط مفيدة للمجتمع فيما يتعلق بالسعادة الدنيوية، بل إن المسيحية كذلك تأمرنا وتتطلب منا أن نشيدها من أجل سعادتنا المستقبلية. إن كيان الإكليروس بأكمله يوصي بها ويحث عليها بجد وحماس، ويبذل فيها رجال الدين جهدا وبلاغة أكبر مما يبذلونه من أجل أي واجب مسيحي آخر؛ ليس من قِبل قساوسة صغار أو باحثين مساكين ذوي مصداقية قليلة، وإنما على يد الأكثر علما من بين أساقفنا وأبرزهم أرثوذوكسية، حتى هؤلاء الذين لا يتعبون أنفسهم غالبا في أي مناسبة أخرى. بالنسبة للدين لا شك أنهم يعرفون ما هو المطلوب منا بشكل رئيسي، وبالتالي ما هو الأكثر ضرورية للخلاص. وبالنسبة للدنيا، مَن سيفهم مصلحة المملكة أفضل من حكمة البلاد التي يمثل أرباب الروحانيات فرعا كبيرا منها؟ نتيجة هذا الإقرار هي – أولا – أن هؤلاء الذين يمثلون بأكياس نقودهم أو بسلطتهم أداة لنمو أو صيانة هذه المدارس يميلون إلى وضع قيمة لما يصنعونه أكبر مما كان يمكنهم بطريقة أخرى أن يروه مستحقا لها. ثانيا أن بقية الآخرين – الذين لا يستطيعون أن يساهموا أو لن يساهموا بأي حال من الأحوال معهم – ما يزال لديهم سبب قوي للغاية كي يتكلموا عنهم بطريقة جيدة؛ لأنه حتى لو كان من الصعب أن نتصرف بشكل حسن في الأمور التي تتداخل مع عواطفنا، فبمقدورنا دائما أن نتمنى بشكل حسن لأن التمني لا يتكلف الكثير. نادرا ما يوجد شخص شرير هكذا بين السوقة المؤمنين بالخرافات، لكنه في حبه للمدارس الخيرية يتخيل رؤية أمل لامع في أنه سيمنحه تكفيرا عن خطاياه، انطلاقا من نفس المبدأ الذي يريح به أشد الفاسدين أنفسهم بالحب والتوقير اللذين يحملانهما للكنيسة، ويجد فيه

أكبر الفاسقين فرصة لإظهار استقامة ميولهم دون أي نفقات.

لكن إذا كانت كل هذه ليست بالاغراءات الكافية لجعل الرجال يقفون دفاعا عن المعبود الذي أتكلم عنه فهناك شيء آخر سيرشو أغلب الناس بطريقة لا يشوبها الخطأ كي يكونوا مدافعين عنه. كلنا نحب الانتصار بشكل طبيعي، وأيا كان من يشارك في هذه القضية فهو واثق من النصر، على الأقل في تسعة مشاريع من كل عشرة. دعه يتجادل مع من يشاء، واضعا في الاعتبار معقولية الحجة والأغلبية التي يمتلكها إلى جانبه؛ إنها قلعة .. حصن منيع لا يمكن أن يُطرَد منه مهزوما، ولو كان أكثر الرجال عفة وفضيلة حيًا ليقدم كل البراهين التي تثبت الضرر الذي تسببه المدارس الخيرية – على الأقل معظمها – للمجتمع، وهو ما سأقدمه فيما يلي، مثل هذا الرجل رغم أنه هو الأقوى إلا أنه إذا وقف ضد أكبر وغد في العالم والذي سيستغل فقط الرياء الشائع حول الخيرية والدين؛ فستكون الأغلبية ضد الأول، ويخسر هو نفسه قضيته في رأي السوقة.

إذن فإن صعود وأصل كل الضجة واللغط الدائرين في كل أنحاء المملكة لمصلحة المدارس الخيرية ينبني أساسا على الضعف والعاطفة البشرية، على الأقل الأمر أكثر من ممكن أن يكون لدى أمة ما نفس الولع وأن تشعر بنفس الحماسة نحو تلك المدارس كما هو ظاهر في بلدنا، وهي مع ذلك غير مدفوعة نحوها نتيجة أي مبدأ من فضيلة أو دين. مُتشجعا بهذا الرأي سأهاجم بحرية أكبر هذا الخطأ السوقي، وسأسعى لتوضيح أنه بعيدا عن كونه مفيدا فإن هذا التعليم القسري

ضار بالشعب وبسعادته؛ لأنه يتطلب منا احتراما أعلى مما تتطلبه جميع القوانين والاعتبارات الأخرى، لذلك سيكون ذلك هو التبرير الوحيد الذي أنوي تقديمه عن الاختلاف مع المشاعر الحالية للكيان المتعلم والموقر لكهنتنا، والمخاطرة بالإنكار الواضح لما سلَّمت الآن بأنه مؤكد صراحة من أغلب أساقفتنا وكذلك كهنتنا الأقل مرتبة. وبما أن كنيستنا لا تدَّعي نجاحا مؤكدا حتى في الروحانيات – وهي مجالها الأصلي – فلا يمكن أن يكون مهينا لها أن نتخيل احتمال وقوعها في الخطأ في الأمور الدنيوية التي لا تقع كثيرا تحت دائرة اهتمامها المباشر. ...... لكن فلأتوجه إلى مهمتي.

الأرض بأكملها واقعة تحت اللعنة، وليس لنا خبز إلا ما نأكله بعرق جباهنا، ولابد من تحمل تعب هائل قبل أن يتمكن الإنسان من تزويد نفسه بضروريات عيشه والعون البسيط لطبيعته الفاسدة والناقصة كمخلوق وحيد؛ لكنه يتحمل متاعب أكبر بلا حدود كي يجعل حياته مريحة في مجتمع متحضر؛ حيث يصبح البشر حيوانات متعلمة، وحيث شكلت أعداد هائلة منهم باتفاق مشترك أنفسهم في كيان سياسي؛ وكلما زادت معرفة الإنسان في هذه الدولة كلما زاد تنوع العمل المطلوب لجعله مستريحا. من المستحيل أن يتمكن مجتمع من البقاء طويلا ويسمح لكثير من أفراده بالعيش في كسل والاستمتاع بكل الراحة والمتع التي يمكنهم ابتكارها، دون أن يوجد في نفس الوقت جموع هائلة من الناس الذين سيذلون أنفسهم ليكونوا العكس تماما حتى يعوضوا هذا العيب، ويدربون أجسادهم بالتعود والصبر على العمل من أجل الآخرين ومن أجل أنفسهم كذلك.

تعتمد وفرة ورخص هذه المؤن إلى حد كبير على السعر والقيمة المحددين لهذا العمل، وبالتالي فإن ازدهار جميع المجتمعات - حتى قبل أن تتلوث بالكماليات الأجنبية - يستلزم أن يتحقق على يد أفرادها هؤلاء الذين يكونون أقوياء وأشداء في المقام الأول وغير معتادين أبدا على الراحة والكسل، وفي المقام الثاني سريعا ما يرضون بتوافر ضروريات الحياة؛ مثل أن يسعدوا باقترانهم بأردأ المصنوعات في كل شيء يرتدونه، وفي نظامهم الغذائي لا يكون لهم أي هدف آخر غير إطعام أجسادهم عندما تحثهم بطونهم على الأكل، دون انتباه كبير للطعم أو النكهة، ولا يرفضون أي طعام مفيد يمكن ابتلاعه عندما يكون الرجال جوعي، ولا يطلبون شيئا من أجل عطشهم غير أن يخمدوه.

ولأن الجزء الأكبر من عملهم الشاق يتم في ضوء النهار؛ فإنهم بهذا فقط يقيسون بالفعل وقت عملهم دون أي فكرة عن الساعات التي عملوها، أو التعب الذي يشعرون به، ولابد أن يستيقظ الرجل الأجير في الريف في الصباح؛ ليس لأنه قد أخذ ما يكفيه من الراحة، ولكن لأن الشمس ستشرق. هذا الموضوع الأخير وحده سيكون عقبة لا تحتمل بالنسبة للأشخاص البالغين الأقل من ثلاثين عاما الذين اعتادوا طوال الصبا على الرقاد في السرير لأطول وقت يمكنهم النوم فيه؛ لكن النماذج الثلاثة السابقة كلها معا تؤلف حالة من الحياة من الصعب أن يختارها رجل متعلم بطريقة أكثر دماثة؛ رغم أنها قد تنجيه من مطمع أو من امرأة سليطة.

إذا كان لابد من وجود هؤلاء الناس - لأنه لا يمكن لأمة عظيمة أن تكون

سعيدة دون أعداد هائلة منهم - ألن يسعى أي مجلس تشريعي حكيم نحو تربيتهم بكل عناية يمكن تخيلها، ويوفر احتياجاتهم في الوقت الذي يمنع فيه نقص المؤن نفسها؟ لن يرضى إنسان بأن يكون فقيرا وأن يرهق نفسه من أجل الرزق إذا كان يمكنه تجنب ذلك. إن الحاجات الأساسية المتمثلة جميعها في الطعام والشراب، والملابس والمأوى في المناخات الباردة، تجعلهم يخضعون لأي شيء يمكن تحمله بها. إذا لم يكن هناك شخص يريد فلن يكون هناك شخص يعمل؛ لكن أكبر الصعاب تبدو مُتعًا رائعة عندما تقي الإنسان من الموت جوعا.

مما قيل يتضح أنه في أي بلد حر لا يُسمح فيه بوجود العبيد فإن أضمن ثروة تتمثل في حشد من الفقراء الكادحين؛ لأنهم بالإضافة إلى ذلك يُعَدُّون مشتلا لا يخيب أبدا للأساطيل والجيوش، وبدونهم لا يمكن أن تكون هناك ثمة متعة، ولا يمكن لمُنتَج من أي بلد أن يكون ذا قيمة. لكي تجعل المجتمع سعيدا والناس مرتاحين تحت أحقر الظروف، فمن الضروري أن تكون أعداد كبيرة منهم جاهلة وفقيرة كذلك. فالمعرفة توسع وتضاعف رغباتنا، وكلما قلت الأشياء التي يتمناها الإنسان، كلما أمكن توفير احتياجاته الضرورية بسهولة أكبر.

لذلك فإن رفاهية وسعادة كل دولة ومملكة تتطلب أن تكون معارف الفقراء العاملين مقتصرة على حدود أشغالهم، وألا تمتد أبدا (فيما يتعلق بالأشياء المادية) إلى ما وراء ما يتصل بمهنهم. فكلما زاد ما يعرفه راعي الغنم أو عامل الحرث أو أي فلاح آخر عن العالم وعن الأشياء الغريبة على عمله أو وظيفته؛ كلما قلت لياقته في خوض متاعب العمل وصعابه بابتهاج ورضا.

إن القراءة والكتابة والحساب أشياء ضرورية للغاية بالنسبة لهؤلاء الذين تتطلب أعمالهم مثل هذه المؤهلات، لكن حيث لا تعتمد أرزاق الناس على هذه الفنون فإنها تكون ضارة جدا بالفقراء الذين يُجبَرون على كسب خبز يومهم بعملهم اليومي. هناك قلة من الأطفال لا تحرز تقدما يُذكر في المدرسة، لكنهم في الوقت نفسه قادرون على أن يتم توظيفهم في عمل أو آخر؛ لذلك فإن كل ساعة ينفقها هؤلاء الفقراء في مطالعة كتبهم هي وقت ضائع بشكل كبير على المجتمع. الذهاب إلى المدرسة مقارنة بالعمل هو شكل من أشكال الكسل، وكلما استمر الأولاد لوقت أطول في هذا النوع من الحياة المريحة؛ كلما قلت كفاءتهم في العمل المباشر عندما يكبرون، سواء بالنسبة للقوة أو للرغبة. إن الرجال الذين سيظلون وسينهون أيامهم في موضع مرهق وشاق ومؤلم من الحياة؛ كلما تم وضعهم فيه بشكل أسرع منذ البداية، كلما خضعوا له بطريقة أكثر صبرا حتى النهاية. إن العمل الشاق والطعام الرديء عقوبة ملائمة لأنواع عديدة من المجرمين، لكن أن تفرض أيا منهما على هؤلاء الذين لم يعتادوا ولم يتربوا عليهما لهي القسوة الأكبر؛ خاصة عندما لا تكون هناك جريمة يمكنك اتهامهم بها.

لا تُكتسب القراءة والكتابة دون بعض المجهود من العقل والمثابرة، وقبل أن يكون الناس متمكنين بشكل معقول من أي منهما، يحسبون أنفسهم أعلى بلا حدود من هؤلاء الجاهلين بهما تماما، غالبا بقليل من العدل والاعتدال كما لو كانوا من جنس آخر. ومثلما لدى كل البشر الفانين نفور طبيعي من التعب والمجاهدة، فكذلك جميعنا مغرمون وميالون للإفراط في تقدير تلك المؤهلات التي دفعنا ثمنها من راحتنا ودَعَتِنا لسنين كاملة. وهؤلاء الذين أنفقوا قسطا كبيرا من صباهم في تعلم القراءة

والكتابة والحساب يتوقعون عن حق أن يتم توظيفهم حيث يمكن لهذه المؤهلات أن تكون ذات نفع لهم؛ وسينظر أغلبيتهم إلى العمل المباشر بأقصى احتقار، أقصد العمل الذي يُؤدَّى خدمة للآخرين في أدنى مواضع الحياة، ومقابل أحقر اعتبار. إن رجلا تلقى بعض التعليم من الممكن أن يمتهن الزراعة باختياره، ويكون مواظبا على أقذر وأكثر الأعمال كدحا؛ لكن عندئذ سيتملكه الهم والجشع والحرص على العائلة أو أي دافع آخر مُلِّح سيضغط عليه؛ لكنه لن يصبح أجيرا جيدا ويخدم فلاحا مقابل مكافأة هزيلة، فعلى الأقل هو ليس لائقا بما يكفي لها مثل عامل يومية عمل دائما على المحراث وعربة نقل الروث، ولا يذكر أنه قد عاش بطريقة أخرى أبدا.

عندما تكون العبودية والخدمات الحقيرة مطلوبة فسنلاحظ دائما أنها لا تُؤدَّى أبدا بابتهاج أو حماس مثلما يؤديها الأدنى منزلة للأرفع مقاما؛ وأقصد الأدنى منزلة ليس فقط في الثروات والمكانة، لكن في المعرفة والفهم كذلك. إن الخادم لا يمكن أن يحمل احتراما صادقا لسيده بمجرد أن يمتلك الإدراك الكافي لأن يكتشف أنه يخدم شخصا أحمق. عندما نكون بسبيلنا للتعلم أو الطاعة فسنجد في أنفسنا أنه كلما تعاظم الرأي الذي نحمله في حكمة وكفاءة هؤلاء الذين يعلموننا أو يأمروننا، كلما زاد الاحترام الذي نبديه لقوانينهم وتعليماتهم. لا يوجد مخلوق يخضع باقتناع لندٍّ له، ولو كان الحصان يعرف قدر ما يعرف الإنسان؛ فلن أرغب في ركوبه.

هنا أنا مضطر مرة أخرى للقيام باستطراد، رغم أني أعلن أنه لم تكن لديّ أبدا رغبة أقل في فعل ذلك مما هي لديّ في هذه اللحظة؛ لكني أرى ألف سنارة صيد تصيد في الماء العكر، وعصبة كاملة من المتحذلقين

الصغار يقفون ضدي بتهمة مهاجمة كتاب التعاليم الأولية ومعارضة عناصر الأدب ذاتها.

ليست هذه نوبة ذعر، ولن يتخيل القارئ أن مخاوفي تتأسس على خلفية مريضة إذا وضع في اعتباره أي جيش من الطغاة التافهين يجب عليَّ أن أتعامل معه، هؤلاء الذين إما يعذبون بالفعل مستخدمين عصا التأديب أو من ناحية أخرى يلتمسون الحصول على هذا المركز المرموق. لأنه لو لم يكن لي خصوم آخرون غير البائسين المتضورين جوعا من كلا الجنسين في مملكة بريطانيا العظمى بأكملها، والذين يملكون كرها كبيرا لوظائفهم الحالية انطلاقا من نفور طبيعي تجاه العمل، ويحسون في دواخلهم بميل أكبر بكثير نحو إصدار الأوامر مما أحسوه أبدا تجاه طاعة الآخرين، ويظنون أنفسهم مؤهلين، ويتمنون من قلوبهم أن يكونوا معلمين ومعلمات في المدارس الخيرية؛ فإن عدد أعدائي سيبلغ مائة ألف على الأقل بأكثر الحسابات اعتدالا.

يُهيأ لي أني أسمعهم يصرخون قائلين أنه لم يتم طرح عقيدة أكثر خطرا، وأن البابوية غافلة عنها، ويتساءلون أيّ وحش مُسْلِم سلَّ سلاحه البشع لتدمير المعرفة. من المؤكد بنسبة تسعين في المائة أنهم سيتهمونني بأنني أسعى بتحريض من إبليس أمير الظلام لإدخال المزيد من الجهل والبربرية إلى هذه المملكة أكثر مما سقطت فيه أي أمة على يد قبائل القوط والوندال منذ أن بدا نور الإنجيل في العالم. إن أي شخص يعمل في ظل كراهية عامة لديه دائما جرائم جاهزة ليتم اتهامه بها وهو لم يرتكب أيا منها أبدا، وستثور الشكوك في أنه كان لي يد في محو الكتاب المقدس، وربما يثبت أنه بناء على طلبي فإن كتب العهد القديم الصغيرة المُجازة والمنشورة عام 1721 – والمصنوعة أساسا للاستفادة

بها في المدارس الخيرية - غدت غير مقروءة عبر سوء الطباعة والورق؛ وهو الأمر الذي أعترض عليه وأنا منه بريء براءة الطفل الذي لم يولد بعد. لكني واقع وسط ألف خوف؛ كلما تأملت أكثر في حالتي كلما قل إعجابي بها، وأكثر ما يريحني هو إيماني الصادق بأنه نادرا ما سيكون هناك شخص يأبه لكلمة مما أقول؛ أو حتى لو حدث وتشكك الناس في أن ما أكتبه يمكن أن يكون له أي وزن لدى أي جزء مُعتبر من المجتمع فلن أملك الشجاعة لمجرد التفكير في جميع الطوائف التي سأثير سخطها، ولا يمكنني غير أن أبتسم عندما أفكر في تنوع ألوان المعاناة الغريبة التي سيتم إعدادها لي، إذا ما كانت العقوبة المختلفة التي سيلحقونها بي هي أن أشير بطريقة رمزية إلى جريمتي. لأنه إذا لم أقف فجأة وقد امتلأ جسدي بسكاكين صغيرة بلا نفع مغروسة حتى مقابضها، فإن جماعة بائعي الأدوات الكتابية سيتولون أمري؛ وإما أنهم سيدفنونني حيًا في رواقهم تحت كومة هائلة من الكتيبات التمهيدية وكتب الهجاء التي لن يتمكنوا من بيعها، أو سيرسلونني مع موجات المد لأصطدم حتى الموت بمصنع للورق سيكون ممتنا لتوقفه عن العمل لمدة أسبوع على حسابي. في الوقت نفسه ومن أجل الصالح العام سيعرض صانعو الحبر أن يخنقونني بالمواد القابضة، أو يغرقونني في السائل الأسود الذي سيتبقى على أياديهم؛ والذي إذا اشتركوا جميعا بالتساوي فقد يستغرق ما لا يقل عن شهر بلا شك حتى يتم غسله. وإذا نجوت من قسوة هذه الكيانات المتحدة سيكون غضب أي محتكر خاص قاتلا لي بنفس الدرجة، وسأجد نفسي بعد قليل مرجوما ومدقوق الرأس بنسخ سميكة من العهد القديم مشبوكة بالنحاس ومسلحة ومستعدة للأذى، حتى أنه في حالة إيقاف التعليم الخيري لن تكون صالحة لشيء غير العراك بها وهي مغلقة،

والتدريب على المشاجرات الحقيقية.

الاستطراد الذي تحدثت عنه للتوّ ليس هو ذلك المزاح الأحمق الذي انتهي مع الفقرة الأخيرة، والذي سيعتقد الناقد الرزين – الذي يُعد كل مرح بالنسبة إليه في غير أوانه – أنه سفيه جدا؛ لكنه استطراد تبريري جاد سأقدمه بالتأكيد لأبرئ نفسي من وجود أي مخطط لديّ ضد الآداب والعلوم كما قد يفهم بعض رؤساء الكليات والمحافظون الآخرون الحريصون على المعرفة الإنسانية لدى رؤيتهم الجهل يُنصح به كمُكوِّن ضروري في نسيج المجتمع المتحضر.

في البداية أود لو كان لديّ تقريبا ضعف عدد الأساتذة الموجودين الآن في كل جامعة. علم اللاهوت لدينا متوافر لديه عدد جيد بشكل عام، لكن الكُليّتين الأخرتين لديهما أقل القليل كي تتفاخرا به؛ خاصة كلية الطب. يجب أن يكون في كل فرع من هذا الفن اثنان أو ثلاثة من الأساتذة، يتحملون عناء توصيل مهاراتهم ومعارفهم إلى الآخرين. في المحاضرات العامة يكون لدى أي رجل مغرور فرص هائلة ليبرز مواهبه، لكن الإرشادات الخاصة تكون أكثر نفعًا للطلاب. إن الصيدلة ومعرفة النباتات الطبية في نفس أهمية وضرورة علم التشريح أو تاريخ الأمراض. من العار أن تجد رجالا حصلوا على درجاتهم العلمية وائتمنتهم السلطة على أرواح الرعية ثم يضطرون إلى القدوم إلى لندن ليتعرفوا على المواد الطبية وتركيب الأدوية، ويتلقون توجيهات من أشخاص آخرين لم يتلقوا هم أنفسهم تعليما جامعيا أبدًا؛ فمن المؤكد أنه في المدينة التي ذكرتها توجد فرصة أكبر للإنسان بنسبة عشر مرات كي يُحسِّن نفسه في التشريح وعلم النبات والصيدلة وممارسة الطب مما هي لديه في كلتي الجامعتين مجتمعتين. ما هي علاقة محل الزيوت بالأقمشة الحريرية، أو

مَن ذا الذي سيبحث عن لحوم الخنزير والمخللات عند تاجر الأقمشة؟ في الأماكن التي تدار فيها الأمور بشكل جيد فإنهم يجعلون المستشفيات خاضعة لتطوير الطلاب في فن الطب مثلما هي نافعة في استرداد صحة المساكين.

يجب أن يحكم المنطق السليم البشر سواء في التعلم أو في العمل؛ فلم يحدث أبدا أن أرسل رجل ابنه كصبي لصائغ كي يجعله بائع ملاءات، إذن لماذا يتحمل واجبا مقدسا تجاه معلمه كي يصبح محاميا أو طبيبا؟ من الصحيح أن اللغات والمنطق والفلسفة يجب أن تكون هي الدراسات الأولى في جميع المهن التي يتم تعلمها، لكن هناك القليل من المساندة للطب في جامعاتنا الغنية للغاية، وحيث يتلقى الكثير من الكسالى أموالا جيدة للأكل والشرب والسكن الفخم والوثير؛ حتى أنه فيما عدا الكتب وما هو شائع في الكليات الثلاثة يمكن للمرء أن يؤهل نفسه في أوكسفورد أو كامبريدج كي يصبح تاجر ديوك رومية بنفس القدر الذي يمكن أن يصبح به طبيبا؛ وهو ما يُعد في رأيي المتواضع علامة كبيرة على أن جزءا كبيرا من الثروة الهائلة التي تمتلكها هذه الجامعات لا تُستخدم بشكل جيد كما يجب أن يكون.

ينبغي أن يحصل الأساتذة – بالإضافة إلى مرتباتهم الممنوحة لهم من الشعب – على ترضيات من كل طالب يُعلِّمونه، حتى يمكن للمصلحة الشخصية وكذلك التنافس وحب المجد أن يدفعوهم إلى المزيد من العمل والمثابرة. عندما يتفوق إنسان في أي مبحث أو فرع من المعرفة، ويكون مؤهلا لتعليم الآخرين، يجب أن يكون مؤمَّنا إذا كان المال سيشتريه، دون اعتبار لأي حزب – أو في الحقيقة أي بلد أو أمة ينتمي إليها – سواء كان أسود أم أبيض. ينبغي أن تكون الجامعات أسواقا عامة لكل أنواع

الأدب، مثل المعارض السنوية التي تقام في ليبزج وفرانكفورت وأماكن أخرى في ألمانيا لسلع وبضائع مختلفة، حيث لا يكون هناك تمييز بين أهل البلاد والأجانب، والتي يتردد عليها الناس من كل أنحاء العالم بحرية متساوية وامتيازات متكافئة.

أود أن أستثني جميع الطلاب الذين يتم إعدادهم لتدريس تعاليم الإنجيل من دفع الترضيات التي تكلمت عنها. ليس ثمة كلية شديدة الضرورة لحكومة بلد من كلية اللاهوت، ولأننا بحاجة لأعداد هائلة من الكهنة لخدمة هذه الجزيرة؛ فلن أجعل الناس الأشد بخلا يعاقون عن تربية أطفالهم من أجل هذه الوظيفة. لأنه رغم أن الأثرياء إذا كان لديهم الكثير من الأبناء يجعلون واحدا منهم قسا في بعض الأحيان، حيث نرى حتى أشخاصا ذوي منزلى رفيعة يضطلعون بالأوامر المقدسة، وهناك كذلك أشخاص ذوو حس سليم - خاصة من القساوسة - يربون أطفالهم من أجل هذه المهنة من باب الاحتياط، عندما يطمئنون بشكل طبيعي إلى أن لديهم أصدقاء أو فائدة كافية، وسيتمكنون إما بمنحة جيدة من الجامعة أو بحق الشفعة أو بأي وسيلة أخرى أن يحصلوا على رزقهم. لكن هذا لا ينتج العدد الكبير من القساوسة المطلوبين سنويا، ونحن مدينون لجسد الكنيسة بالبحث عن مصدر آخر.

ما بين الأشخاص العاديين في جميع المهن يوجد متعصبون لديهم رهبة خرافية من ثوب ورداء الكهنة؛ وهناك جموع من هؤلاء يشعرون برغبة محمومة في أن يكون لديهم ابن يترقى في تدريس تعاليم الإنجيل، دون تفكير فيما يمكن أن يصبح عليه حالهم بعد ذلك؛ وكم من أُم طيبة في هذه المملكة تتغذى يوميا على هذه الفكرة السارة منتشية بهذ الأمنية المجيدة دون مراجعة ظروفها أو قدرات ابنها، وغالبا قبل أن يتم ابنها

عامه الثاني عشر تلقي بنفسها في نوبات من النشوة ودموع الرضا مازجة بين الحب والتفاني الأموميين، بالتفكير في المتعة المستقبلية التي ستنالها برؤيته واقفا في منبر الوعظ وهي تسمعه بأذنيها يبشر بكلمة الرب. إننا ندين لهذه الحمية الدينية – أو على الأقل لمناطق الضعف البشرية التي تمررها وتمثلها – بهذه الكثرة الهائلة من الدارسين الفقراء الذين تتمتع بهم البلاد. لأنه بتأمل تفاوت سبل الرزق وضآلة إقطاعات الكنائس في طول المملكة وعرضها سنجد أنه بدون هذه النزعة السارة لدى الآباء ذوي الحظوظ الصغيرة لم يكن من الممكن أن نتزود من أي جهة اخرى بأشخاص مناسبين لتدريس تعاليم الإنجيل، للاهتمام بكل علاجات الأرواح، وهم يحصلون على مخصصات تدعو للرثاء لدرجة أنه لا يوجد إنسان تلقى أي قدر معقول من التعليم يمكنه أن يتعيَّش عليها إلا إذا كان متملكا للفضيلة الحقة، الأمر الذي يجعل من الحماقة والضرر الحقيقي أن نتوقع المزيد منها لدى رجل الكنيسة عما نجده لدى الرجل العلماني.

هذا الاهتمام الكبير الذي أود أن أوليه لدعم هذا الفرع من التعليم ذي المنفعة الفورية الأكبر للمجتمع لا ينبغي أن يجعلني أهمل الفروع الرفيعة والأكثر طرافة، لكن من الواجب تشجيع جميع الفنون التقدمية وكل فرع من الأدب في كل أنحاء المملكة، أكثر مما هم عليه إذا كان رجائي يمكنه أن يحقق ذلك. ينبغي أن تكون هناك في كل مقاطعة مدرسة كبيرة أو أكثر تقام على نفقة الشعب لتعليم اللاتينية واليونانية وتُقسَّم إلى ست صفوف أو أكثر بمعلمين مخصصين لكل منها. ويجب أن تخضع المدرسة كلها لرعاية وتفتيش بعض رجال العلم والأدب في السلطة، والذين لن يكونوا مجرد مديرين اسميين؛ لكن يتحملون بالفعل مرتين في العام على الأقل

عبء سماع كل صف أثناء اختباره من معلمه، وألا يُرضوا أنفسهم بالحكم على التقدم الذي أحرزه الدارسون من خلال مواضيع وتدريبات تمت بعيدا عن أعينهم.

في الوقت نفسه أود أن أعيق وأحول دون تضاعف تلك المدارس التافهة التي لم يكن يمكن أن يكون لها أي وجود أبدا لو لم يكن مدرسوها معوزين بشكل مدقع. إنه لخطأ مبتذل ألا يستطيع أي امرء أن يتهجى أو يكتب الإنجليزية جيدا دون لطخة صغيرة من اللاتينية. يؤيد هذا المتحذلقون لمصلحتهم الشخصية، وكذلك الدارسون الفقراء الذين لا يوجد من يبقى بصعوبة على قيد الحياة أكثر منهم بكل ما في ذلك من معنى؛ وفي الوقت نفسه هذا كذب مشين. لقد عرفت وما زلت على معرفة بالعديد من الأشخاص - وبعضهم من الجنس اللطيف - ممن لم يتعلموا أبدا أي لاتينية، ومع ذلك يحافظون على قواعد الإملاء الدقيقة ويكتبون معاني جيدة ومثيرة للإعجاب، بينما على الجانب الآخر يمكن لكل امرء أن يصادف خربشات الدارسين المُدَّعين - على الأقل هؤلاء الذين ذهبوا إلى مدارس القواعد النحوية لسنوات عديدة - والتي بها أخطاء نحوية وإملائية. إن الفهم الشامل للغة اللاتينية شيء ضروري للغاية بالنسبة لكل هؤلاء الذين يتم إعدادهم لأي من المهن المثقفة، ولن يكون لديّ رجل مهذب دون معرفة بالأدب؛ حتى هؤلاء الذين من المفترض أن يكونوا محامين أو جرَّاحين أو صيادلة ينبغي أن يكونوا أكثر تمكنا بكثير في هذه اللغة مما هم عليه بشكل عام. لكن بالنسبة للشباب الذين سيكسبون رزقهم بعد ذلك في مهن ووظائف لا تكون فيها حاجة يومية لاستخدام اللاتينية؛ فلا فائدة منها، وتعلمها خسارة بيِّنة للكثير من الوقت والمال اللذين سيمُنحان لها. عندما يجيء الرجال للعمل يكون ما تعلموه من

هذه اللغة في تلك المدارس التافهة إما تم نسيانه بسرعة أو يصلح فقط لجعلهم سفهاء، وكثيرا ما يكونون مثيرين لمشاكل جمة في العمل. قلة من الرجال يمكنهم الإمساك عن تقدير أنفسهم على أي معرفة لديهم بمجرد اكتسابها، حتى بعد أن يفقدوها؛ وإذا لم يكونوا شديدي التواضع والحكمة، فإن البقايا عسيرة الهضم التي يتذكرها عادة هؤلاء الناس عن اللغة اللاتينية قلَّما تفشل في جعلهم في وقت أو آخر مثار سخرية لهؤلاء الذين يفهمونها.

سأتعامل مع القراءة والكتابة كما نفعل مع الموسيقى والرقص؛ فلن أمنعهما ولن أفرضهما على المجتمع. طالما أن هناك أي شيء يمكن الحصول عليه بواسطتهما فسيكون هناك ما يكفي من المعلمين لتدريسهما؛ لكن لا ينبغي تدريس شيء بلا مقابل إلا في الكنيسة. وهنا سأستبعد حتى هؤلاء الذين يمكن أن يتم إعدادهم لتدريس تعاليم الإنجيل؛ لأنه لو كان الآباء فقراء بشكل مدقع حتى أنهم لا يمكنهم توفير هذه المكونات الأولية من التعليم لأطفالهم، فستكون وقاحة منهم أن يطمحوا إلى أي شيء أكثر من ذلك.

سيشجع ذلك أيضا النوع الأدنى من الناس على منح أطفالهم ذلك الجزء من التعليم، إذا كان بمقدورهم رؤيتهم أفضل حالا من هؤلاء السكارى الكسالى أو الفاسقين البؤساء الذين لم يعرفوا أبدا كيف يوفرون خرقة لعيالهم إلا بالتسول. لكن الآن عندما تكون هناك حاجة لولد أو بنت من أجل أي خدمة صغيرة، فإننا نعتقد أنه من الواجب تشغيل أطفال مدارسنا الخيرية قبل أي أحد آخر. إن تعليمهم يبدو كمكافأة على كونهم أشرارا وخاملين، وهي فائدة تُمنح عادة للآباء الذين يستحقون العقاب على إهمال عائلاتهم بهذه الطريقة المخزية. يمكنك أن تسمع في مكان

ما وغدًا نصف سكران يلعن نفسه وينادي طالبا قدحا آخر، ويضيف كسبب جيد لهذا أن ولده يحصل على كساء وتعليم بلا مقابل، وفي مكان آخر سترى امرأة فقيرة في أشد الحاجة والعوز يعتنون بطفلها لأنها هي نفسها مومس كسولة، ولم تفعل أبدا أي شيء لمعالجة احتياجاتها باجتهاد طيب، غير النواح عليها في خمَّارة.

إذا تعلَّم أطفال الجميع بشكل جيد، والذين يمكنهم باجتهادهم أن يُعلِّموهم في جامعاتنا، سيكون هناك رجال متعلمون كافون لسد حاجة هذه البلد وبلد آخر كذلك؛ ولن تكون القراءة والكتابة والحساب ناقصين في الأعمال التي تتطلبهم، حتى لو لم يتعلم أحد غير هؤلاء الذين يستطيع آباؤهم تحمل نفقة تعليمهم. هناك أمور مع ذلك لا يمكن شراؤها بالمال، ويسري ذلك على الثقافة مثلما يسري على هبات الروح القدس؛ ولا شيء أسوأ من الفطنة المشتراة – إذا صدَّقنا ما يقوله المَثَل.

ظننت أنه من الضروري أن أقول كل هذا الكلام الكثير عن التعليم، لكي أتفادى لغط أعداء الحقيقة والتعامل العادل، الذين لو لم أشرح وجهة نظري هكذا ببساطة وعلى مسؤوليتي؛ لأعلنوا أني خصم مميت لكل الآداب والمعارف النافعة، وأني مدافع شرير عن الجهل والغباء في العالم. يجب الآن أن أفي بوعدي بالرد على ما أعرف أن متمني الخير للمدارس الخيرية سيعترضون به عليَّ بقولهم أنهم تعهدوا هؤلاء الأطفال تحت رعايتهم بهدف تعليمهم مِهنًا مطلوبة وشاقة وليس للبطالة والكسل كما ألمحت.

لقد أوضحت فعلا بما يكفي السبب في أن الذهاب إلى المدرسة بطالة وكسل إذا قورن بالعمل، وفنَّدت هذا النوع من التعليم لأطفال الفقراء؛ لأنه يُضعف قدراتهم فيما بعد على العمل المباشر، الذي هو مجالهم الصحيح،

وفي كل مجتمع متحضر هناك جزء لا يجب أن يشكو أو يتذمر منه إذا تم ضبطه بتعقل وإنسانية. يبقى أن أتكلم عن إعدادهم الأطفال للمهن، والذي سأسعى لأثبت أنه مدمر لانسجام الأمة، وتدخل سفيه فيما يعرف قلة من هؤلاء المديرين أي شيء عنه.

من أجل هذا دعنا نفحص طبيعة المجتمعات، ومما يجب أن يتكوَّن تركيبها، إذا كنا سنرفعها إلى درجة عالية من القوة والجمال والكمال بقدر ما تسمح لنا الأرضية التي سنفعل ذلك عليها. إن تنوع الخدمات المطلوبة لتوفير الكماليات والرغبات الشهوانية بالإضافة إلى حاجات الإنسان الحقيقية – بكل وظائفها التابعة – هو في بلد كبلدنا تنوع هائل؛ ومع ذلك فمن المؤكد أنه رغم أن عدد هذه الوظائف المتعددة كبير بشكل مفرط، إلا أنه بعيد عن أن يكون لانهائيا؛ وإذا أضفت واحدة زائدة عن المطلوب فستكون غير ضرورية. لو أن رجلا لديه رصيد جيد وأفضل محل في شارع (تشيبسايد[24]) ليبيع فيه عمامات؛ فسيُفلس. ولو أن (ديمتريوس[25]) أو أي صائغ فضة آخر لم يصنع شيئا غير أضرحة ديانا[26] فلن يحصل على خبز يومه الآن بعد أن أصبحت عبادة هذه الإلهة شيئا من الطراز القديم. مثلما هي من الحماقة أن تؤسس مهنة ليست مطلوبة؛ فنظير ذلك أن تزيد الأعداد في أي مهنة عمَّا هو مطلوب. وبالمثل سيكون من غير المعقول أن يكون لدينا صانعو خميرة بقدر ما لدينا من خبَّازين، أو باعة أصواف بقدر صانعي الأحذية. هذه النسبة فيما يتعلق

24- شارع في مدينة لندن اشتهر بكونه مكانا لسلسلة من منافذ البيع بالتجزئة ومحلات الطعام ومركز التسوق بالمدينة

25- صائغ فضة كان يقوم بصنع أضرحة على شكل آرتميس إلهة الصيد الإغريقية

26- إلهة القمر والصيد عند الرومان شبيهة آرتميس عند الإغريق

بالأرقام في كل مهنة تجد نفسها بنفسها، ولا يمكن أبدا الاحتفاظ بها بشكل أفضل إلا عندما لا يتوسط أو يتدخل فيها أي شخص.

الناس الذين لديهم أطفال يُعلِّمونهم والذين يجب أن يحصلوا على رزقهم دائما ما يتشاورون ويتداولون حول أي مهنة أو حرفة سيربونهم من أجلها حتى يستقروا؛ ويفكر الآلاف في ذلك ممن لا يكادون يفكرون على الإطلاق في أي شيء آخر. في البداية يقيدون أنفسهم بظروفهم، وهذا الذي يمكنه تقديم عشرة جنيهات مع ابنه لا يجب أن يبحث عن مهنة يطلبون فيها مائة جنيه من الصبي المتدرب؛ لكن الأمر التالي الذي يفكرون فيه هو دائما أيّ المهن ستكون هي الأكثر ربحا؛ إذا كانت هناك في هذا الوقت مهنة يعمل بها الناس عامة بشكل أكبر مما هم في أي مهنة أخرى في نفس المستوى، فسيكون هناك عشرة آباء جاهزين للتوّ لإمدادها بأبنائهم. ولذلك فإن أشد حرص تتخذه الشركات هو ما يتعلق بضبط عدد المتدربين. والآن عندما تشكو جميع المهن – وربما عن حق – من أنها متخمة بالعاملين؛ فإنك تؤذي هذه المهنة بوضوح عندما تضيف إليها عضوا زائدا أكثر مما يتدفق من طبيعة المجتمع. بالإضافة إلى ذلك فإن مديري المدارس الخيرية لا يتفكرون كثيرا في أي المهن هي الأفضل، لكن أي أصحاب العمل يمكنهم الوصول إليه ليأخذ الأولاد بهذا المبلغ؛ وقلة من الرجال ذوي حيثية وخبرة سيفعلون أي شيء مع هؤلاء الأطفال، فهم يخشون من عشرات المتاعب التي ستأتي من وراء آبائهم المعوزين؛ لذلك فهم على الأقل في معظم الحالات مقيدون إما بأرباب عمل سكارى ومهملين، أو بآخرين معوزين بشدة ولا يهتمون بما سيصبح عليه صبيانهم المتدربون بعد أن يحصلوا على المال؛ والذي يبدو منه كما لو أننا لم ندرس شيئا أكثر من أن يكون لدينا مفرخة دائمة

للمدارس الخيرية.

عندما تكون جميع المهن والحِرف اليدوية متكدسة بالعمالة فتلك علامة أكيدة على أن هناك خطأ في إدارة الكل؛ لأنه من المستحيل أن يكون هناك أناس كثيرون بشكل زائد إذا كانت البلاد قادرة على إطعامهم. هل المؤن نادرة؟ خطأ مَن هذا، طالما أن لديك أرضا غير محروثة وأيادي لا تعمل؟ لكن سيرد عليَّ أحدهم بأن زيادة الوفرة لابد على المدى الطويل من أن تدمر الفلاح وتخفض الإيجارات في كل أنحاء انجلترا. وأرد على هذا بأن أكثر ما يشكو منه الفلاح هو ما سأصلحه؛ إذ أن أكبر مظالم الفلاحين والبستانيين وغيرهم – حيث يكون الجهد الشاق مطلوبا والعمل القذر واجبا – هي أنهم لا يستطيعون الحصول على أجراء بنفس الأجور التي اعتادوا أن يدفعوها لهم من قبل. فعامل اليومية يتذمر من ستة عشر بنسا مقابل أن يقوم بعمل لا يختلف عما كان يفعله جده بابتهاج منذ ثلاثين عاما مقابل نصف هذا المال. وبالنسبة للإيجارات، فمن المستحيل أن تقل بينما أنت تزيد من أعدادك، لكن سعر المؤن وكل الأعمال عامة لابد أن يقل معها إن لم يكن قبلها؛ ورجل يكسب مائة وخمسين جنيها في العام ليس لديه سبب ليشكو من أن دخله قل إلى مائة جنيه إذا كان يمكنه أن يشتري بهذه الجنيهات المائة نفس القدر الذي كان يمكنه أن يشتريه من قبل مقابل مائتي جنيه.

لا توجد قيمة فعلية للنقود غير ما هو قابل للتغيير مع الزمن، وسواء كان الجنيه الذهبي يساوي عشرين جنيها أو يساوي شلنا، فإن عمل الفقراء – كما أشرت بالفعل من قبل – هو الذي يجب أن تأتي منه كل وسائل الراحة في الحياة، وليست القيمة العالية أو المنخفضة التي تُضفى على الذهب أو الفضة. بوسعنا أن نحوز وفرة أكبر بكثير مما نتمتع به، إذا تم

الاعتناء بالزراعة والثرة السمكية كما يجب أن يكون؛ لكننا قليلي القدرة على زيادة جهدنا، حتى أننا لدينا بالكاد ما يكفي من الفقراء لفعل ما هو ضروري لبقائنا موجودين. إن تناسب المجتمع مختل، ومعظم جسد الأمة الذي ينبغي في كل مكان أن يتكون من الفقراء الكادحين الذين لا يعرفون كل شيء إلا عن عملهم .. صغير بشكل مفرط مقارنة بالأجزاء الأخرى. في كل الأعمال التي يتم فيها تجنب العمل المباشر أو زيادة أجرته؛ يوجد وفرة من الناس. لديك لكل تاجر عشرة محاسبين، أو على الأقل مدعين؛ وفي كل مكان في البلاد يحتاج الفلاح إلى أيدي عاملة. اطلب خادما عمل لبعض الوقت لدى عائلات راقية، وستجد دستة جميعهم عملوا كبيري خدم. يمكنك أن تجد خادمات بالعشرات، لكن لا يمكنك أن تجد طباخا في ظل الأجور الباهظة.

لا يوجد امرء سيؤدي عملا عبوديا قذرا يمكنه تجنبه. أنا لا أرفضهم، لكن كل هذه الأشياء توضح أن الذين يعانون أشد المعاناة يعرفون أكثر مما يلزم ليكونوا في خدمتنا. فالخدم يطلبون أكثر مما يمكن للسادة والسيدات تقديمه، وياله من جنون إذا تم تشجيعهم على ذلك بالزيادة الجدية لهذه المعرفة على حسابنا والتي سيتأكدون من جعلنا ندفع مقابلها مرة بعد أخرى ! ولا يتوقف الأمر على أن هؤلاء المتعلمين على نفقتنا يتعدُّون علينا؛ بل إن فتيات الريف الساذجات الجاهلات ورفاقهم المغفلين الذين لا يقدرون على شيء ولا يحسنون شيئا يستغلوننا كذلك. إن ندرة الخدم التي تسبب فيها تعليم المذكورين أولا، يمكن المذكورين لاحقا من رفع سعرهم، والمطالبة بما يجب أن يُعطى فقط لخدم يفهمون عملهم ولديهم أغلب الصفات الجيدة التي يمكن أن تكون مطلوبة فيهم.

ليس هناك مكان في العالم يوجد فيه أشخاص أكثر مهارة في الاعتناء

بمهمة أو القيام بها من بعض خدمنا؛ لكن ما هو الشيء الذي يحسنونه بشكل أساسي؟ إن الغالبية العظمى منهم أوغاد ولا تجدر الثقة بهم، وإذا كانوا شرفاء فإن نصفهم سكيرون وسيشربون حتى الثمالة ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع. والجادُّون منهم يكونون غالبا عدوانيين، ويُقدِّرون رجولتهم بما يتجاوز جميع الاعتبارات الأخرى، ولا يبالون بأية ملابس يفسدونها، أو ما الخسائر التي يتسببون فيها عندما تكون شجاعتهم موضع اختبار. أما الرقيقون منهم فغالبا ما يكونون قوادين حزانى يطاردون المومسات دائما ويفسدن كل الخادمات اللاتي يقتربن منهم. الكثيرون منهم مذنبون بهذه الرذائل جميعها: العُهر، السُكر، الشغب، ومع ذلك يتم التغاضي عن جميع أخطائهم وتحملها؛ لأنهم رجال لهم مظهر طيب وتعامل متواضع ويعرفون كيف يسهرون على راحة السادة المهذبين؛ وهي الحماقة التي لا تُغتفر في السادة والتي تنتهي عادة بفساد الخدم.

هناك قلة منهم غير مدمنين على أيّ من هذه العيوب، ويفهمون واجباتهم كذلك؛ لكن بما أن هؤلاء من النوادر، فليس فيهم واحد في الخمسين إلا ويبالغ في تقدير نفسه؛ ولابد أن يكون أجره باهظا، ولا يمكنك أبدا أن تنتهي من إعطائه ما يطلب؛ فكل شيء في المنزل بمثابة بقشيش له، ولن يبقى معك إلا إذا أصبحت عوائده كافية لإعالة أسرة متوسطة، ورغم أنك انتشلته من كومة روث أو خارجا من ملجأ أو سجن، فإنك لن تحتفظ به أبدا لمدة أطول من الوقت الذي يمكنه فيه أن يجعل من منزله ما يظن في تقديره العالي لنفسه أنه يستحقه؛ لا بل إن أفضلهم وأكثرهم تهذيبا والذين لم يكونوا أبدا وقحين وسفهاء سيتركون أكثر السادة تساهلا وتسامحا، وكي يرحلوا بشكل لطيف سيختلقون خمسين عذرا، ويقولون

أكاذيب صريحة بمجرد أن يتمكنوا من تحسين أمورهم. إن رجلا يربح نصف كراون[27] أو اثني عشر قرشا في المتوسط، لا يتطلع إلى المزيد من المال من زبائنه أكثر مما يفعل خادم مع كل ضيف يتغدَّى أو يتعشَّى مع سيده؛ وأنا أتساءل إذا ما كان أحدهما لا يفكر غالبا في أن الشلن أو نصف الكراون – حسب نوعية الشخص – هو حقه مثله مثل الآخر.

إن رب المنزل الذي ليس بمقدوره إقامة الكثير من الحفلات، ولا يدعو غالبا الناس إلى مائدته، لا يمكنه أن يحصل على خادم جدير بالثقة، ويضطر إلى أن يتقبل مغفلا ريفيا أو أي أخرق غيره، والذي سيفر منه أيضا بمجرد أن يتخيل نفسه صالحا لأي خدمة أخرى، ويجعله رفاقه الأنذال أكثر حكمة. كل المطاعم المشهورة والأماكن التي يلجأ إليها الكثير من السادة للتسلية أو للعمل – وعلى الأخص ساحات قصر ويستمنستر – هي المدارس الكبرى للخدم، حيث يتمكن أكثر الأشخاص بلادة من تحسين أفهامهم، والتخلص على الفور من غبائهم وبرائتهم. إنها أكاديميات الخدم، حيث يلقي الأساتذة الخبراء منهم محاضرات عامة يوميا في جميع علوم الفسق المنحط، ويتم تعليم الطلاب فيما يزيد عن سبعمائة من الفنون الدنيئة: كيف يغشون، ويحتالون، ويكتشفون الجانب الأعمى في سادتهم، مع الكثير من التطبيق العملي؛ حتى أنهم في غضون سنوات قليلة يتخرَّجون بشهادات معتمدة في الإثم. السادة الشباب والآخرون من غير المتضلعين بشكل كامل في الدنيا، عندما يحصلون على مثل هؤلاء المحتالين العارفين في خدمتهم؛ عادة ما يتساهلون معهم بما يفوق الحد، وخوفا من اكتشاف حاجتهم للخبرة فإنهم نادرا ما يجرؤون على

27- عملة قديمة كانت تساوي شلنين وست بنسات

معارضتهم أو إنكار أي شيء عليهم، وهو السبب غالبا في أنهم بالسماح لهؤلاء الخدم بامتيازات غير معقولة فإنهم يفضحون جهلهم في الوقت الذي يسعون فيه لإخفائه.

ربما يضع البعض مسؤولية الأمور التي أشكو منها على عاتق الرفاهية، التي قلت عنها أنها من الممكن ألا تشكل أذى لأمة غنية إذا لم تتجاوز الواردات الصادرات أبدا؛ لكني لا أعتقد أن هذا الاتهام صحيح، ولا يجب أن يُحتسَب شيء ضد الرفاهية؛ فذلك بصراحة هو أثر الحماقة. قد يكون هناك رجل مسرف للغاية في إشباع متعته وتحقيق راحته، ويسعى وراء متع العالم مهما كانت مرهقة وغالية الثمن إذا كان باستطاعته الحصول عليها، وفي نفس الوقت يُظهر حسه السليم في كل شيء حوله. لا يمكن قول أنه يفعل هذا إذا كان يجعل من حوله دائما غير قادرين على أداء هذه الخدمة التي يتوقعها منهم. إنها الأموال الكثيرة والأجور الباهظة والعوائد غير المعقولة التي تفسد الخدم في انجلترا. قد يكون لدى الرجل خمسة وعشرون حصانا في اصطبلاته دون أن يكون متهما بالحماقة إذا تناسب ذلك مع بقية ظروفه، لكنه إذا كان يحتفظ بحصان واحد فقط ويبالغ في إطعامه ليستعرض ثروته فإنه أحمق على كل ما يتجشمه من عناء. أليس من الجنون أن يُسمَح للخدم بأخذ ثلاثة في المائة وآخرين يأخذون خمسة في المائة مما يدفعونه لأصحاب المتاجر عن سادتهم، كما هو معروف جيدا لصانعي الساعات والآخرين الذين يبيعون اللعب والتحف الرخيصة وغيرها من الهدايا، إذا كانوا يتعاملون مع أشخاص من نوعية جيدة ووجهاء متأنقين يتعالون عن الكلام حول نقودهم؟ إذا كانوا يقبلون هدية تُعرض عليهم فيمكن التغاضي عن ذلك، لكنها وقاحة لا تُغتفر أن يزعمون أن ذلك حقهم، ويجادلون من أجلها إذا تم رفض طلبهم. هؤلاء

الذين تتوافر لديهم جميع ضروريات الحياة يمكن ألا يكون لديهم أي داعٍ للنقود غير ما يسبب لهم الأذى كالخدم، إلا إذا كانوا سيكنزونه تحسبا للتقدم في العمر او للمرض، وهو الأمر غير الشائع بين خدمنا الصغار، وحتى عندئذ فإن ذلك يجعلهم وقحين وغيرمحتملين.

بلغني من مصدر موثوق فيه أن رهطا من الخدم بلغوا قمة الوقاحة لدرجة أنهم كوَّنوا معا جمعية، وأنشأوا قوانين ألزموا بها أنفسهم ألا يخدموا بأقل من مبلغ معين، ولا يحملوا أثقالا أو أي صُرَّة أو حزمة تزيد عن وزن معين: ألا تتجاوز رطلين أو ثلاثة، مع قواعد أخرى متعارضة بشكل مباشر مع مصلحة هؤلاء الذين يخدمونهم، ومدمرة كُليًة للاستخدام الذي تم إعدادهم من أجله. أما لو تم طرد أيّ منهم بسبب تمسكه الصارم بقواعد هذه الجماعة المبجلة؛ فيجرى الاعتناء به حتى تتوافر له فرصة خدمة أخرى، ولا يوجد نقص في المال في أي وقت لبدء دعوى قضائية والاستمرار فيها ضد أيّ سيد سيتجرأ على ضرب أو إلحاق أي أذى بخادمه الوجيه، وهو ما يتعارض مع قوانين جمعيتهم. لو كان هذا صحيحا – حيث لديَّ أسبابي للاعتقاد بصحة هذا – وسُمح لهم بالاستمرار في التشاور والتزود من أجل راحتهم وانسجامهم؛ فيمكن توقع أن نرى بسرعة الكوميديا الفرنسية: (السيد العبد) يتم تمثيلها باجتهاد جيد في معظم العائلات، الأمر الذي لو لم يتم تداركه خلال وقت قصير، ووسَّع هؤلاء الخدم جماعتهم إلى العدد الذي يمكنها أن تبلغه، وكذلك أصبحوا يجتمعون عندما يشاؤون متمتعين بالحصانة، فسيكون بمقدورهم تحويلها إلى تراجيديا متى ما خطر ببالهم ذلك.

لكن افترضوا أن هذه المخاوف تافهة ولا أساس لها، فلا يمكن إنكار أن الخدم بشكل عام يتعدُّون يوميا على سادتهم وسيداتهم، ويسعون

لكي يكونوا في مستواهم بشكل أكبر. هم لا يبدون فقط توَّاقين لمحو المكانة المتدنية لظرفهم؛ لكنهم بالفعل قد رفعوها بشكل كبير في التقدير الجمعي من الحقارة الأصلية التي يستلزم الصالح العام أن تظل موجودة. أنا لا أقول أن هذه الأشياء كلها بسبب المدارس الخيرية؛ فهناك شرور أخرى قد تُنسَب إليها بشكل جزئي. لندن كبيرة بشكل مفرط على الريف، ونحن أنفسنا ناقصون من جوانب عديدة. لكن إذا كان لابد من حدوث ألف خطأ قبل أن تتولد المشكلات التي نعمل في ظلها، هل يمكن أن يشك أي امرء سيضع في اعتباره ما قلته في أن المدارس الخيرية هي شيء ثانوي، أو أنها على الأقل أكثر احتمالا لخلق هذه الشكاوى وزيادتها عن أن تقللها وتتداركها؟

الشيء الوحيد ذو الثقل الذي يمكن أن يقال في صالح هذه المدارس هو أن نحو ألف طفل يتعلمون فيها قواعد الإيمان المسيحي ومبادئ الكنيسة الإنجليزية. ولكي أوضح أن هذا ليس عذرا كافيا لهم، فلابد أن أطلب من القارئ - لأني أكره التكرار - أن يرجع إلى ما قلته من قبل، والذي أضيف إليه أن أيًا كان ما هو ضروري للخلاص وأساسي للناس الفقراء الكادحين كي يعرفوه فيما يتعلق بالدين، والذي يتعلمه الأطفال في المدرسة، يمكن تعليمه كاملا كذلك إما بالوعظ أو بالتعليم الشفهي في الكنيسة والتي لا أريد أن أجد واحدا من أحقر أبناء الأبرشية القادرين على المشي غائبا عنها أو عن أي مكان عبادة آخر في أيام الآحاد. إنه يوم الأحد؛ أكثر الأيام السبعة نفعا، المخصص للخدمة الإلهية والممارسة الدينية بالإضافة إلى الراحة من العمل البدني، وهناك واجب حتمي على كل القضاة أن يولوا اهتماما خاصا بهذا اليوم. ويجب إلزام الفقراء وأطفالهم على الأخص بالذهاب إلى الكنيسة قبل الظهر وبعده؛ لأنهم لا يملكون وقتا في أي

فترة أخرى. إذ يجب أن يُشَجعوا ويتعودوا على ذلك بالإرشاد والقدوة منذ طفولتهم؛ ويجب أن يُعدَّ الإهمال المتعمد للقيام بذلك عملا مشينا، وإذا بدا الإلزام المباشر لما أحث عليه قاسيا بشكل لا يُحتمل وربما غير عملي؛ فعلى الأقل يجب تحريم جميع أشكال اللهو، ومنع الفقراء عن كل تسلية في أي مكان قد تجذبهم أو تشدهم منه.

وحيث يهتم القضاة بهذا الأمر طالما أنه يقع في نطاق سلطتهم، سيمكن للقائمين على تعاليم الإنجيل أن يغرسوا في أصغر الطاقات تقوى وتفانيا أكثر ومبادئ للفضيلة والدين أفضل مما فعلته أو ستفعله المدارس الخيرية أبدا، وهؤلاء الذين يشكون – عندما تكون لديهم مثل هذه الفرص – من أنهم لا يستطيعون أن يُشربوا أبناء أبرشيتهم بالمعرفة الكافية لما هم مازالوا بحاجة إليه كمسيحيين دون مساعدة القراءة والكتابة؛ إما أنهم كسولون للغاية أو جاهلون للغاية وتافهون هم أنفسهم.

حقيقة أن الأكثر معرفة ليسوا هم الأكثر تدينا ستتضح إذا قمنا بتجربة بين أشخاص ذوي قدرات مختلفة، حتى في هذه المرحلة التي لم يصبح فيها الذهاب إلى الكنيسة فرضًا على الفقراء والأميين كما يمكن أن يكون. دعونا نختار مائة رجل فقير، أول رجال نتمكن من مصادفتهم، ويكونون فوق الأربعين، وتربُّوا على العمل الشاق منذ طفولتهم، كهؤلاء الذين لم يذهبوا أبدا إلى أي مدرسة على الإطلاق، وعاشوا دائما بعيدا عن المعرفة والمدن الكبيرة. ودعونا نقارنهم بعدد مساوٍ من الدارسين الماهرين للغاية، ممن حصلوا جميعا على تعليم جامعي؛ وليكن نصفهم إذا شئت من اللاهوتيين، الضليعين في فقه اللغة وعلم الجدال، ثم دعونا نتفحص بإنصاف حيوات وحوارات كلتي المجموعتين، وأنا أجرؤ على أن أعدكم بأننا سنقابل ما بين المجموعة الأولى التي لا تستطيع القراءة ولا الكتابة

اتحادا وحبا للجيرة أكبر، وشرا وتعلقا بالدنيا أقل، وراحة بال أكثر، وبراءة أكثر، وإخلاصا، وخصالا طيبة أخرى تفضي إلى السلام العام والسعادة الحقيقية، عما سنجده بين المجموعة الثانية؛ حيث يمكننا - على العكس - التأكد من ارتفاع نسبة الغرور والعجرفة، والشجارات والخلافات الأبدية، والكراهية العنيدة، والشقاق، والحسد، والافتراء، والرذائل الأخرى المدمرة للتوافق المشترك، والتي قلما تلوث بها الفقراء الكادحون الأميون إلى أي درجة كبيرة.

أنا مقتنع تماما بأن ما قلته في الفقرة الأخيرة ليس معلومة جديدة لمعظم قرائي؛ لكن لو كان حقيقة فلماذا ينبغي مجادلته، ولماذا يجب أن نجعل دائما من اهتمامنا بالدين عباءة تخفي مقاصدنا الحقيقية ونوايانا الدنيوية؟ لو وافق كلا الفريقين على خلع الأقنعة فسنكتشف على الفور أن مهما كان ما يتظاهرون به فإنهم لا يهدفون إلى شيء من المدارس الخيرية أكثر من أن يقووا فريقهم، وأن المتمسكين الكبار بالكنيسة يقصدون بتعليم الأطفال مبادئ الدين أن يثيروا فيهم احتراما رفيعا لرجال الكنيسة الإنجليزية، ونفورا قويا وعداء أبديا ضد كل من ينشقون عنها. لكي نتيقن من هذا ليس علينا إلا أن نتذكر من ناحية ما هو أكثر ما يثير الإعجاب في خطب القساوسة الخيرية وما هو أكثر ما هم مغرمون بوعظه، ومن ناحية أخرى نتذكر إذا ما كنا قد شهدنا في السنوات الأخيرة أي أعمال شغب أو مشاجرات حزبية بين الرعاع، لم يكن فيها شباب ملجأ خيري شهير في هذه المدينة هم دائما قادة العصابات الأجرأ.

إن دعاة الحرية الكبار الذين دائما ما يحمون أنفسهم ويتصادمون مع السلطة الاستبدادية - غالبا عندما لا يكونون عرضة لأي خطر منها - يتكلمون عادة ليس بطريقة خرافية للغاية ولا يبدو أنهم يولون أهمية

كبيرة لأي رسولية حديثة؛ ومع ذلك فإن بعضهم كذلك يرفعون عقيرتهم عاليا لمصلحة المدارس الخيرية، لكن ما يتوقعونه منها ليس له علاقة بالدين أو الأخلاق: إنهم ينظرون إليها فقط كوسيلة مناسبة لتدمير وإحباط سلطة الكهنة على العلمانيين. فالقراءة والكتابة يزيدان المعرفة، وكلما زادت معرفة البشر، كلما استطاعوا أن يحكموا على الأمور بأنفسهم بشكل أفضل. وهم يتخيلون أنه إذا كان يمكن أن تغدو المعرفة كلية؛ فلن يتمكن الناس من أن يتخلصوا من سيطرة الكهنة، وهو الأمر الذي يخشونه أشد خشية.

أعترف بأن الأوائل – فريق المتمسكين بالكنيسة – من الممكن جدا أن يحققوا هدفهم. لكن الرجال الواثقين الحكماء غير المتحيزين لحزب أو المتعصبين للكهنة لن يعتقدوا أن الأمر يستحق تحمل متاعب بهذه الكثرة التي يمكن أن تتسبب فيها المدارس الخيرية فقط من أجل دعم طموح وسلطة رجال الكنيسة. بالنسبة للفريق الآخر – فريق دعاة الحرية – سأرد عليهم بأنه لو أن جميع هؤلاء الذين تعلموا على نفقة آبائهم أو أقاربهم لم يفكروا إلا لأنفسهم ورفضوا أن يفرض الكهنة شيئا على عقولهم، فإننا لن نحتاج إلى أن نهتم بما سيفعله رجال الكنيسة بالجهلاء الذين لا يتلقون تعليما على الإطلاق.دعوهم يتعهدون بأغلبهم: ولنضع في اعتبارنا المدارس التي لدينا لهؤلاء الذين يستطيعون الدفع مقابل التعليم ويدفعون بالفعل، فمن السخيف تخيل أن إلغاء المدارس الخيرية سيكون خطوة نحو أي جهل يمكن أن يكون مؤذيا للبلاد.

لا أود أن يعتقد أحد أني قاسٍ، وأنا متأكد تماما إذا كنت أعرف أي شيء عن نفسي أنني أكره الوحشية؛ لكن أن تكون رحيما حتى تتجاوز النقطة التي يحظرها العقل – والصالح العام للمجتمع يتطلب ثبات الفكر والعزم

– فهو ضعف لا يُغتفر. أعرف أن ثمة من سيجادل دائما ضدي بأنه من الوحشية ألا يكون لدى أطفال الفقراء فرصة الاجتهاد بأنفسهم طالما أن الله لم يحرمهم من المواهب العاطفية والعبقرية أكثر مما فعل مع الأغنياء. لكني لا يمكنني الاعتقاد بأن هذا أقسى من أنهم لا ينبغي أن يحصلوا على نقود طالما أن لديهم نفس الميول للإنفاق كالآخرين. أنا لا أنكر أن رجالا عظاما وصالحين قد نشأوا في ملاجئ خيرية، لكن من المحتمل جدا بالمثل أنهم عندما تم استخدامهم في البداية أُهمل الكثير ممن يماثلونهم في الكفاءة ولم يتربوا في ملاجئ خيرية، والذين كانوا سيفعلون مثلهم بالضبط لو أتيح لهم نفس الحظ الجيد وتم استخدامهم بدلا من الآخرين.

هناك الكثير من الأمثلة لنساء تفوقن في التعليم، وحتى في الحرب؛ لكن هذا ليس سببا يجعلنا نربيهن جميعا على اللاتينية واليونانية أو على النظام العسكري بدلا من شغل الإبرة وأعمال المنزل. لكن ليس هناك ندرة في الألمعية أو المواهب الطبيعية بيننا، ولا توجد أرض أو مناخ لديهما بشر يتفاخران بهم أحسن تكوينا سواء داخليا أو خارجيا مما تنبته هذه الجزيرة عادة. لكن الفطنة والعبقرية والانقياد ليسوا هم ما نريد، بل الاجتهاد والتطبيق والمثابرة.

هناك الكثير من العمل الشاق والقذر الذي يجب أن يتم، والحياة الخشنة التي يجب الإذعان لها. أين سنجد مشتلا أفضل لهذه الضرورات من أطفال الفقراء؟ ليس هناك بالتأكيد من هو أقرب لها أو أكثر مناسبة. بالإضافة إلى ذلك فإن الأشياء التي أسميتها بـ (الصعوبات) لا تبدو ولا تكون هكذا بالنسبة لهؤلاء الذين تربوا عليها، ولا يعرفون شيئا أفضل منها. لا يوجد أناس أكثر قناعة بيننا من هؤلاء الذين يعملون أصعب الأعمال ويعرفون

أقل الأشياء عن أبهة وكماليات الدنيا.

هذه حقائق لا يمكن إنكارها؛ لكني أعرف قلة من الناس هم الذين سيكونون سعداء بكشفها؛ لأن ما يجعلها بغيضة هو مزاج غير منطقي من الاحترام التافه للفقراء يجري في أغلب الشعوب، وعلى الأخص في هذا البلد، وينشأ من مزيج من الشفقة والحماقة والخرافة. نتيجة لإحساس حاد بهذا المُركَّب لا يستطيع البشر تحمل سماع أو رؤية أي شيء يقال أو يُفعل ضد الفقراء؛ دون اعتبار لمدى صواب هذا الشيء أو صلفه. هكذا لا يجب أن تضرب متسولا رغم أنه يهاجمك أولا. ويذهب الخياطون الجدد الذين بالكاد أنهوا تدريبهم إلى المحاكم بمُعلميهم ويعاندون في قضايا خاطئة، ومع ذلك لابد من التعاطف معهم؛ ولابد من التخفيف عن النسَّاجين المتذمرين، والقيام بخمسين شيئا سخيفا لمسايرتهم، رغم أنهم وسط فقرهم يهينون من هم أفضل منهم، ويبدون أكثر ميلا في جميع المناسبات لقضاء الأجازات وإثارة أعمال الشغب عن العمل أو الرزانة.

يجعلني هذا أتفكر في إنتاجنا من الصوف، والذي أعتقد بصدق أنه إذا وضعنا في اعتبارنا حالة شؤوننا وتصرفات الفقراء فإنه لن يتم تصديره إلى الخارج تحت أي ظرف. لكن لو تأملنا السبب في أن تكبُّد إرساله للخارج ضار هكذا؛ فيمكن أن تكون شكوانا ومناحتنا الثقيلة من تصديره بلا مصداقية كبيرة بالنسبة لنا. إذا أخذنا بعين الاعتبار المخاطر الهائلة والمتعددة التي يجب خوضها قبل أن يمكن خروجه من الساحل ووصوله بأمان فيما وراء البحار؛ يتضح أنه لابد للأجانب قبل أن يتمكنوا من العمل على صوفنا أن يدفعوا مقابله ثمنا أكثر بكثير وبشكل معتبر مما نحصل عليه في الوطن. لكن بالرغم من هذا الاختلاف الكبير في التكلفة الأصلية؛

إلا أنهم يستطيعون بيع المنتجات المصنوعة منه في الأسواق الأجنبية بسعر أرخص مما نفعل نحن أنفسنا. تلك هي الكارثة التي نرزح تحتها، الشر الذي لا يُحتمل، والذي بدونه كان يمكن لتصدير هذه السلعة ألا يكون أكثر ضررا لنا من تصدير القصدير أو الرصاص؛ طالما أن أيدينا العاملة موظفة بالكامل ومازال لدينا الصوف متوفرا.

لا يوجد شعب حتى الآن وصل إلى كمال أعلى في صناعة الصوف سواء في إنجاز أو في جودة العمل - على الأقل في أهم الفروع - من شعبنا؛ ولذلك فإن ما نشكو منه يمكن أن يعتمد فقط على الاختلاف في إدارة الفقراء، ما بين الأمم الأخرى وأمتنا. إذا كان الأشخاص العاملون في بلد ما سيعملون لمدة اثنتي عشرة ساعة في اليوم وستة أيام في الأسبوع، وفي بلد آخر لا يعملون إلا ثماني ساعات في اليوم وليس أكثر من أربعة أيام في الأسبوع؛ فإن الثانية يجب أن يكون لديها تسعة عمال لما تقوم به الأولى بأربعة عمال. علاوة على ذلك إذا كان العيش والطعام والملبس وما يستهلكه العمال الكادحون لا يتكلف إلا نصف المال الذي يتم إنفاقه ما بين عدد مكافئ في البلد الأخرى، فلابد أن تكون النتيجة هي أن الأولى ستحتاج إلى عمل ثمانية عشر رجلا بنفس السعر الذي تعطيه الأخرى لعمل أربعة. لن أُلمِّح - ولا أعتقد - أن الاختلاف سواء في العمل الجاد أو في ضرورات الحياة بيننا وبين أي بلد من جيراننا يقترب من أن يكون كبيرا جدا مثل ذلك الذي أتحدث عنه، ومع ذلك أود أن يوضع في الاعتبار أن نصف هذا الاختلاف وأقل من النصف بكثير كافٍ ليرجح الظروف السيئة التي يعملون تحتها عن سعر الصوف.

لا شيء بالنسبة لي أكثر وضوحا من أنه لا توجد بلد في أي صناعة أيا كانت يمكنها أن تبيع بسعر أقل من جيرانها الذين على خير ما يرام

في علاقتهم بها لكنهم يناظرونها في الكفاءة والإنجاز والاستعداد للعمل، على الأخص عندما لا تكون التكلفة الأصلية للشيء الذي سيتم تصنيعه لصالحهم، إلا إذا كان لديهم مخزونا، وأي شيء يتصل بعيشهم أرخص، أو أن العمال إما سيكونون أكثر مواظبة وسيبقون في عملهم لفترة أطول، أو سيكونون راضين بطريقة في العيش أدنى وأقسى من حياة جيرانهم. من المؤكد أنه عندما تتساوى الأرقام فإنه كلما كان الناس أكثر جدًا وكدحا وكلما قل عدد الأيدي العاملة التي تؤدي نفس كمية العمل؛ كلما تعاظمت الوفرة الموجودة في البلاد من ضروريات الحياة، وكلما تزايد حجم ما يمكن لهذا البلد تقديمه من صادرات ورَخَصَ سعرها.

إذن إذا سلمنا بأن هناك الكثير من العمل الذي يجب أن يُؤدَّى، فإن الشيء التالي الذي أعتقد أنه لا يمكن إنكاره بالمثل هو أنه كلما تم هذا العمل بطريقة أكثر ابتهاجا كلما كان ذلك أفضل؛ سواء بالنسبة لهؤلاء الذي يؤدونه، أو بالنسبة لبقية المجتمع. أن تكون سعيدا يعني أن تكون راضيا، وكلما قل تصور الإنسان عن طرق أفضل للعيش؛ كلما زاد رضاه بحياته. وعلى الجانب الآخر كلما زادت معرفة الإنسان وخبرته في الحياة، وكلما زادت رقة ذوقه روعًة، وكلما زادت مهارة حكمه على الأمور بشكل عام؛ كلما زادت بالتأكيد صعوبة إرضائه. أنا لا أُزكِّي أي شيء بربري أو لا إنساني، لكن عندما يكون هناك رجل يستمتع بوقته، يضحك ويغني، ويُريني في إيماءاته وسلوكه كل أمارات القناعة والرضا؛ فإني أقول أنه سعيد، ولا دخل لي بذكائه أو كفاءته. لا أتدخل أبدا في معقولية بهجته، على الأقل لا ينبغي لي أن أحكم عليها بمعاييري الخاصة، وأجادل من منطلق أن الشيء الذي يجعله سعيدا سيكون له نفس التأثير عليّ. بتلك الطريقة يجب أن يدعوني رجل يكره الجبن بالأحمق لأني أحب الجبن

ذا العفن الأزرق. الأذواق ليست للمناقشة[28] جملة صحيحة مجازيا كما هي صحيحة بالمعنى الحرفي، وكلما زادت المسافة بين الناس بالنسبة لأحوالهم وظروفهم وطرائق عيشهم؛ كلما قلت قدرتهم على الحكم على مشاكل أو ملذات بعضهم البعض.

لو ذهب أحقر وأشد الفلاحين جلافة متنكرا ليراقب أعظم ملك لمدة أسبوعين؛ ورغم أنه من الممكن أن ينتقي العديد من الأشياء التي سيعجب بها لنفسه، إلا أنه سيجد أشياء أكثر بكثير والتي لو تبادل هو والملك أماكنهما لتمنى بدوره أن يغيرها فورا أو يُعدلها، والتي يرى الملك لدهشته خاضعا لها. وفي المقابل لو قُدِّر للملك أن يدرس الفلاح بنفس الطريقة؛ فسيكون عمله لا يطاق، وستكون القذارة والبؤس، طعامه وعلاقاته الجنسية، ووسائل تسليته واستجمامه جميعها بغيضة فظيعة؛ لكن بالمثل أي مفاتن سيجدها في راحة بال الفلاح وهدوء وسكينة روحه؟ فليس هناك حاجة لإخفاء حقيقة مشاعره عن أي فرد في عائلته، أو لإظهار وِدٍّ مزيف لأعدائه اللدودين، بلا زوجة ذات اهتمامات غريبة، ولا خطر يخشاه من أطفاله، بلا مؤامرات ليكشفها، ولا سُم يخافه، بلا رجل دولة محبوب في الوطن أو مستشارين ماكرين في الخارج يجب إدارتهم، بلا مُدَّعي وطنية يجب رشوتهم، ولا محبوب نَهِم يجب إشباعه، بلا حكومة أنانية يطيعها، ولا أمة منقسمة يرضيها، أو غوغاء متقلبة يسايرها، هؤلاء الذين يوجهون ويتدخلون في ملذاته.

لو كان هناك عقل محايد يحكم بين الخير الحقيقي والشر الحقيقي، ودليل إرشادي يُصنع بناء على ذلك ليبين المباهج والمنغصات العديدة

28- باللاتينية في الأصل

التي يمكن مقابلتها على نحو مختلف في كلا الموقفين؛ أتساءل إذا ما كانت حالة الملوك ستكون مفضلة بأي حال من الأحوال على حالة الفلاحين، حتى بالجهل والكدح اللذين يبدو أني أطالب الأخيرين بأن يكونوا عليهما. السبب في أن عامة الناس يفضلون أن يكونوا ملوكا عن أن يكونوا فلاحين يعود أولاً إلى الكبرياء والطموح المغروسين بعمق في الطبيعة الإنسانية، واللذين نرى يوميا بشرا يتحملون الصعاب ويستخفون بها لكي يشبعوهما. ويعود ثانيا إلى الاختلاف الموجود في القوة التي تصاغ بها عاطفتنا نحو الأشياء سواء كانت مادية أم روحية. فالأشياء التي تهاجم حواسنا الخارجية على الفور تعمل بشكل أكثر قسوة على مشاعرنا مقارنةً بما ينتج عن الفكر وما يمليه المنطق الأكثر وضوحا، وهناك نزعة أقوى بكثير لاكتساب إعجابنا أو نفورنا في الأولى أكثر مما لدى الثانية.

بعد أن أوضحتُ هكذا أن ما أدعو إليه يمكن ألا يشكل ضررا أو أقل نقص في سعادة الفقراء، أترك الأمر للقارئ الحكيم ليرى إذا لم يكن من الأحرى بنا أن نزيد من صادراتنا بالوسائل التي أشرت إليها، بدلا من الجلوس في مكاننا لاعنين وساخطين على جيراننا لأنهم هزمونا بأسلحتنا نحن؛ فبعضهم يفوقوننا في بيع مصنوعات صُنعت من منتجنا الذي اشتروه غاليا، وآخرون تتزايد ثرواتهم برغم المسافة والمتاعب، عن طريق نفس السمكة التي نهملها رغم أنها مستعدة للقفز داخل أفواهنا.

مثلما يمكنك عن طريق مكافحة الكسل بالحيلة والثبات أن تجبر الفقراء على العمل دون استخدام القوة، كذلك يمكنك بتربيتهم في الجهل أن تُعوِّدهم على الصعاب الحقيقية دون أن يكونوا مدركين هم أنفسهم على الإطلاق لكونهم كذلك. بتربيتهم في الجهل لا أقصد أكثر من أنه فيما

يتعلق بالأمور الدنيوية – كما أشرت منذ فترة طويلة – ينبغي أن تنحصر معرفتهم داخل حدود أشغالهم، على الأقل لا ينبغي علينا أن نتحمل عناء توسيعها بما يتجاوز هذه الحدود. وعندما نتمكن باستخدام هذين المحركين من جعل المؤن – وبالتالي العمل – أرخص؛ فلابد بلا شك أن نتفوق على جيراننا في البيع؛ وفي نفس الوقت نزيد من أعدادنا. تلك هي الطريقة النبيلة والرجولية لمواجهة منافسينا في التجارة، وبعلامة الاستحقاق نتفوق عليهم في الأسواق الخارجية.

في بعض الحالات نستغل السياسة بنجاح لكي نجتذب الفقراء. فلماذا ينبغي أن نهملها في أهم نقطة، عندما يتفاخرون بأنهم لن يعيشوا مثل فقراء الأمم الأخرى؟ إذا كنا لا نستطيع تغيير قرارهم، فلماذا ينبغي أن نشيد بعدالة مشاعرهم المضادة للصالح العام؟ لطالما تساءلت سابقا كيف يمكن لرجل إنجليزي يدَّعي بأنه يحمل شرف ومجد وكذلك رخاء بلده في القلب، أن يجد متعته في المساء بالاستماع إلى مستأجر كسول مدين له بإيجار ما يزيد على العام وهو يسخر من الفرنسيين لارتدائهم قباقيب، عندما يكون قد تحمل في الصباح ألم الاستماع إلى الملك العظيم وليم، هذا الملك الطموح ورجل الدولة المتمكن أيضا، وهو يعترف صراحة للعالم ويشكو بأسى وغضب في نظراته من القوة المفرطة لفرنسا. مع ذلك أنا لا أُزكِّي القباقيب، ولا تتطلب الثوابت التي سأقدمها قوة استبدادية في شخص واحد. آمل أن تبقى الحرية والملكية مكفولين، ومع ذلك يتم توظيف الفقراء بطريقة أفضل مما هي الآن، رغم أن أطفالهم ينبغي أن يُبلوا ثيابهم في العمل النافع، ويُسوِّدوها بتراب الوطن من أجل شيء ما، بدلا من تمزيقها عن ظهورهم في اللعب، وتلطيخها بالحبر عبثا.

هناك ما يزيد على ثلاثمائة أو أربعمائة سنة من العمل لمائة ألف فقير

أكثر مما نملك في هذه الجزيرة. لكي نجعل كل شبر فيها مثمرا، وجميعها مأهولا تماما بالسكان؛ يجب أن تتحول أنهار كثيرة لكي تكون صالحة للملاحة، وان تُشق القنوات في مئات الأماكن. بعض الأراضي يجب تجفيفها وتأمينها من السيول في المستقبل، مساحة كبيرة من الأراضي البور يجب تخصيبها، وآلاف الأفدنة يجب أن تصبح أكثر نفعا بجعل الوصول إليها أسهل. الآلهة تمنح كل شيء للعمل الجاد[29]. لا توجد صعوبة في هذه الطبيعة لا يمكن للعمل الجاد والصبر التغلب عليها. أعلى الجبال يمكن أن تُقذف في وديانها التي تقف مستعدة لاستقبالها، ويمكن أن تقام الجسور حيث لا نجرؤ الآن على التفكير فيها. دعونا نعود بالنظر إلى الأعمال المذهلة للرومان، وعلى وجه الأخص طرقهم العامة وقنواتهم المائية. دعونا نتأمل بنظرة واحدة المدى الهائل للعديد من طرقهم، كيف صنعوها بمتانة، وما المدة التي بقيتها، وبنظرة أخرى نتأمل مسافرا فقيرا يتم إيقافه بحاجز رسوم في كل نهاية عشرة أميال والإلحاح عليه لدفع قرش لإصلاح الطرق في الصيف بما يعرف الجميع أنه سيكون وحلا قبل أن ينتهي الشتاء الذي سيليه.

راحة الجماهير يجب دائما أن تكون هي الهم العام، ولا ينبغي أبدا أن تعيق المصلحة الخاصة لمدينة أو لمقاطعة كاملة تنفيذ مشروع أو وسيلة ستؤدي بوضوح إلى تحسين المجموع؛ وكل عضو في المجلس التشريعي، يعرف واجبه ويفضل أن يختار التصرف كرجل حكيم عن أن يداهن جيرانه من أجل مصلحة، سيفضل أقل فائدة مستحقة للمملكة بأكملها عن أقصى ميزة ملموسة للمكان الذي يخدمه.

29- باللاتينية في الأصل

لدينا موادنا الخام الخاصة بنا، ولسنا بحاجة لا إلى الحجارة ولا إلى الأخشاب لنقوم بأي شيء، ولو جمعنا كل سنة الأموال التي يعطيها الناس غير مجبرين للمتسولين الذين لا يستحقونها، وما يضطر كل رب منزل إلى دفعه لفقراء أبرشيته والذي يتم توظيفه بطريقة أخرى أو إساءة استعماله؛ لتحصَّلنا على تمويل كافٍ لإبقاء آلاف كثيرة جدا في العمل. لا أقول هذا لأني أظنه عمليا، بل فقط لأُظهر أن لدينا مالا كافيا يمكن توفيره لتشغيل حشود غفيرة من العمال؛ ولا ينبغي علينا أن نطلب الكثير من أجله كما يمكن أن نتخيل. عندما يكون من المُسلَّم به أن الجندي - الذي من المفترض الحفاظ على قوته وحيويته على الأقل مثله مثل أي شخص آخر - يمكنه أن يعيش على ستة بنسات في اليوم، فلا يمكنني تصور ضرورة إعطاء ستة عشر وثمانية عشر بنسا في اليوم معظم السنة لعامل يومية.

أعرف أن هؤلاء الخائفين والحريصين من الناس الغيورين دائما على حريتهم سيهتفون صارخين بأنه حيث تظل الجموع التي أتكلم عنها تتلقى أجرة ثابتة؛ ستكون الملكية والامتيازات غير ثابتة. لكن يمكن الرد عليهم بأنه قد يتم اكتشاف وسائل مضمونة وصياغة قوانين شبيهة بالنسبة للأيدي العاملة يُعهد إليها إدارة وتوجيه هؤلاء العمال؛ حتى أنه سيكون من المستحيل على الأمير أو أي شخص آخر أن يسيء استخدام جموعهم.

أتوقع أن ما قلته في الفقرات الأربع أو الخمس الأخيرة سيثير ضحكا ممزوجا بكمية وافرة من الاحتقار لدى الكثيرين من قرائي، وعلى أفضل الفروض سيقال أنه بناء قلاع في الهواء؛ لكن سواء كان هذا خطأي أم خطأهم فتلك هي المسألة. عندما تغادر الروح العامة أمة من الأمم، فإنهم

لا يفقدون فقط صبرهم معها وجميع الأفكار المتعلقة بالمثابرة، لكنهم يصبحون كذلك ضيقي الروح، لدرجة أنه يصبح من المؤلم لهم حتى أن يفكروا في أشياء لها مدى غير مألوف أو تتطلب امتدادا زمنيا كبيرا؛ وأيًا كان ما هو نبيل أو سامٍ في هذه الحالات فإنه يُعد وهميا. حيثما يتم تحديد مسار الجهل العميق وطرده، ويُبعثر التعليم المتدني بعشوائية على جميع الناس؛ يقوم حب الذات بتحويل المعرفة إلى مكر، وكلما سادت هذه الخصلة في أي بلد كلما ضبط الناس جميع اهتماماتهم وعنايتهم وانكبابهم على الزمن الحاضر، دون اعتبار لما سيأتي من بعدهم، أو التفكير بالكاد فيما وراء الجيل التالي.

لكن المكر – كما يقول سيدي لورد فيرولام[30] – ليس إلا حكمة عسراء، لذلك فإن أي مجلس تشريعي حصيف يجب أن يأخذ حيطته من تلك الفوضى في المجتمع بمجرد أن تظهر أعراضها، والتي من أوضحها ما يلي. المكافآت الخيالية محتَقَرة بشكل عام، فالكل مشغول بتدوير القرش والصفقات القصيرة؛ فهذا الذي لا يثق في كل شيء ولا يؤمن بشيء إلا بما تراه عيناه يُعد الأكثر حصافة، وفي كل معاملاتهم يبدو أن البشر لا يتصرفون من أي منطلق آخر غير مبدأ أن الشيطان يأخذ الأخير[31]. وبدلا من زراعة أشجار البلوط التي ستستلزم مائة وخمسين عاما قبل أن تكون صالحة للقطع، يبنون منازل بِنيَّة ألا تظل قائمة لما يزيد عن اثنتي عشرة أو أربعة عشرة سنة. كل الرؤوس تتكلم باستمرار عن لايقينية الأشياء

30- المقصود به فرانسيس بيكون (1561 – 1626) الفيلسوف والعالم ورجل الدولة والقاضي والخطيب وكاتب المقالات والمؤلف الإنجليزي الذي يعد أحد رواد وممارسي ما سمي بالمنهج العلمي مع بدايات الثورة العلمية

31- قول مأثور معناه أن هؤلاء الذين يتأخرون في الخلف لا يتلقون اي مساعدة.

وتقلبات الأحوال الإنسانية. وتصبح الرياضيات هي الدراسة الوحيدة القيِّمة، وتتم الاستفادة منها في كل شيء حتى في المواضع التي تكون فيها مثيرة للضحك، ويبدو وكأن البشر لا يضعون ثقة في العناية الإلهية أكبر مما يضعونها في تاجر مفلس.

إن مهمة الجمهور هي إصلاح عيوب المجتمع، وأن يضع يده أولا على أكثر ما يهمله الأفراد. أفضل ما يعالج المتناقضات هو المتناقضات، ولذلك كمثال لفاعلية أكبر من أمر من السلطة التشريعية في إصلاح أوجه القصور الوطنية؛ يجب على المجلس التشريعي أن يصر على بعض المشروعات العظيمة التي يجب أن تكون عمل أجيال وتتطلب كذلك جهدا واسعا، وأن تقنع العالم بأنها لم تصنع شيئا دون مراعاة مهمومة بآخر من سيأتي من نسلهم. سيثبِّت هذا أو على الأقل سيساعد في استقرار الذكاء المتقلب والروح المترددة للمملكة، ويضع في أذهاننا أننا لم نولد من أجل أنفسنا فقط، ويكون وسيلة لجعل البشر أقل ارتيابا، ويوحي إليهم بحب صادق لبلادهم، ومحبة رقيقة للأرض ذاتها، والتي لا يوجد ما يفوقها ضرورة لتنمية الأمة. قد تتبدل أشكال الحكومات، وقد تتغير الأديان وحتى اللغات، لكن بريطانيا العظمى أو على الأقل (لو كان من الممكن أن تفقد هذه أيضا اسمها) الجزيرة نفسها ستبقى، وبكل الاحتمالات البشرية ستدوم بقدر ما يدوم أي جزء في الكوكب. كل الأجيال قد قدمت دائما شكرها وتقديرها الطيب لأسلافها من أجل الفوائد التي أتت منهم، والمسيحي الذي يتمتع بوفرة النوافير والكمية الهائلة من المياه التي ستقابله في مدينة (سانت بيتر)[32] هو تعيس جاحد إذا لم يلق بتحية شكر على روما

32- المقصود الفاتيكان حيث توجد كنيسة القديس بطرس / سانت بيتر وليس مدينة سانت بيتر الأمريكية

الوثنية القديمة التي تجشمت هذا العناء الهائل لكي تحصل عليها.

عندما تُزرع هذه الجزيرة ويصبح كل شبر فيها صالحا للسكن ونافعا، وتغدو كلها أكثر بقعة مريحة ومحبوبة على وجه الأرض؛ فإن كل التكلفة والجهد اللذين سيُبذلان فيها سيتم تعويضهما بطريقة رائعة عبر الإجلال الذي سيحمله هؤلاء الذين سيأتون من بعدنا، وهؤلاء الذين يحترقون بالحماسة النبيلة والرغبة في الخلود، والذين تحملوا هذا العبء لتحسين بلادهم، سيرتاحون راضين بأنهم بعد الآن بألف أو ألفين من السنوات سيعيشون في ذاكرة الأجيال المستقبلية ومدائحها الأبدية التي ستستمتع بها عندئذ.

هنا ينبغي أن أختتم هذه القطعة الملحمية من الأفكار، لكن هناك شيء يخطر ببالي فيما يتعلق بالمجال الرئيسي والقصد من هذا المقال، وهو إثبات ضرورة وجود قدر معين من الجهل في أي مجتمع منظم بشكل جيد، والذي لا يجب عليّ حذفه؛ لأنني بذكري إياه أقدم حجة إلى جانبي لما أمكن أن يبدو بسهولة - لو لم أتكلم عنه - اعتراضا قويا ضدي. إن رأي أغلب الناس - ورأيي من بين البقية - أن أكثر خاصية جديرة بالثناء لدى قيصر موسكو الحالي هي انكبابه الدؤوب على الارتقاء برعاياه من غبائهم الفطري، وتمدين بلده. لكن بالمثل يجب علينا أن نضع في اعتبارنا أن هذا هو ما كانوا في حاجة إليه، وأن أغلبيتهم كانت منذ وقت ليس بالطويل قريبة من البهائم العجماء. وبالنسبة لامتداد أملاكه والجموع الغفيرة التي يحكمها، لم يكن لديه ذلك العدد أو التنوع من الحرفيين والصُناع الذين تطلبهم التطوير الحقيقي للبلاد، ولذلك كان لديه الحق في ألا يترك حجرا دون أن يقلبه للحصول عليهم. لكن ماذا عنا نحن الذين نعمل في ظل داء معاكس؟ إن السياسة السليمة بالنسبة للجسد الاجتماعي مثل فن الطب

بالنسبة للجسد الطبيعي، ولا يوجد طبيب سيعالج رجلا مريضا بالكسل كما لو كان مريضا بسبب نقص الراحة، أو سيصف لداء الاستسقاء ما ينبغي أن يُعطى كدواء لمرض السكري. باختصار؛ روسيا لديها رجال معرفة أقل مما يجب، وبريطانيا العظمى لديها أكثر مما يلزم.

ثلاث دراسات حول الأخلاق والفضيلة

يضم هذا الكتاب ترجمة لثلاثة من المقالات الأساسية لبرنارد ماندفيل جمعتها طبعات مختلفة من كتابه خرافة النحل وهي : (بحث في أصل الفضيلة الأخلاقية) و(بحث في طبيعة المجتمع) و(مقال عن الخيرية والمدارس الخيرية). وتمثل المقالات الثلاثة الأعمدة الأساسية لأطروحات ماندفيل الفكرية التي تتسع لتشمل الأخلاق والمجتمع والاقتصاد ولا تهمل التاريخ والدين والعلم. تقدم المقالات صورة للمجتمع الإنجليزي في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، فترة الحداثة المبكرة والتنوير والثورة العلمية في التاريخ الأوروبي والتي ألقت بظلالها الكثيفة على العالم بأسره من وقتها وحتى الآن.

الناشر

تعريف بالمؤلف

برنارد ماندفيل: أو برنارد دي ماندفيل هو فيلسوف وعالم اقتصاد سياسي وكاتب ساخر هولندي. وُلد في الخامس عشر من نوفمبر عام 1670، وعاش أغلب حياته في انجلترا وكتب ونشر معظم أعماله بالإنجليزية. كانت آراء ماندفيل صادمة للرأي العام. ويمكن القول عنه باختصار أنه أزاح العقبات من أمام مذهب النفعية القادم من بعده. وقد توفي ماندفيل في 21 يناير 1733 عن 62 عاما بعد إصابته بالأنفلونزا.

Cover Design by Mohamed Saad



